قضية نسب الفاطميين

أمام منهج النقد التاريخي

بقلم
الدكتور عبد الحليم عويس

مكتبة ابن تيمية
ص. ب: ٢٢٠٩٧
المحرق - البحرين

الطبعَة الأولى
محرّم ١٤٠٦هـ - اكتوبر ١٩٨٥م.

مكتبة ابن تيميّة
ص.ب : ٢٢٠٩٧
المحرق - البحرين

(توطئة):

قامت الدولة الفاطمية في المغرب (٢٩٨ هـ - ٣٦١ هـ) بعد أن فتح المغرب - فتح دعوة وسيف - أبو عبيد الله الشيعي لحساب أبي عبيد الله المهدي، ثم قامت في مصر (٣٦٢ - ٥٦٤ هـ) بعد أن فتحها لحسابهم - فتح سيف - قائد المعزّ لدين الله الفاطمي المعروف (بجوهر الصقليّ).

وفي كلتا الدولتين: المغرب ومصر لم يبق للفاطميين أثر مذهبي بعد ذهابهم اللهم إلا في بعض الموالد والمظاهر والأحفال التي روجوا لها هنا وهناك، فضلاً عن بعض المخلفات الأثرية والحضارية المحدودة.

وثمة قضية نراها جديرة بالبحث - من وجهة نظرنا - ترتبط بالفاطميين، إذا ما ذكروا.. إنها قضية حقيقة هؤلاء القوم الذين شغلوا الدنيا نحو ثلاثة قرون سواء في المغرب أو في المشرق.

وفي فترة من الفترات، وهذا ما دعانا لإعادة الحديث هنا، كاد الرأي القائل بأن الفاطميين من نسل فاطمة بنت محمد - ﷺ - ينتصر، وكادت الآراء التي روجت لهم تغلب غيرها، لشهرة قائليها، ولأن مخالفيهم انما هم خصوم للفاطميين، وحرى بالخصم أن لا يؤخذ رأيه في خصمه!

مثبتو النسب الفاطمي وأدلتهم:

ولم لا؟ ومن القائلين بصحة نسبهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) الذي اعتبر التشكيك في نسبهم بعض مظاهر (التوهّم) في التاريخ[١]، فكاد - بالتالي - يصادر الآراء الأخرى، لولا أن منهج النقد التاريخي قد اتضحت معالمه، وأصبح قادراً على أن يرشدنا إلى آراء أخرى!!

بل إن بعض المؤرخين الثقات كابن الأثير في الكامل (٦٣٠ هـ) والمقريزي في الخطط المقريزية (٨٤٥ هـ) يدافعون عن نسب الفاطميين

---

(١) انظر (المقدمة) ص ١٢١ طبعة..

وكأنهم قد وضعوا أيديهم على ما يؤكد ذلك.

ولو اطلع هؤلاء المؤرخون على ما أورده المؤرخ (أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد) في مخطوطه الموسوم باسم (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم) لضموه إلى جملة الآراء التي يستشهدون بها دليلا على صحة رأيهم. إن هذا المؤرخ القريب العهد بالفاطميين يقول (في الصفحة السادسة من مخطوطه) وهو بصدد الحديث عن عبيد الله المهدي.. يقول: «لقد اختلف الناس في نسبه إلى الحسين بن علي عليهما السلام، فمن مسلمين ما ادعاه، ومقرين بما حكاه، ومن دافعين ومانعين ما انتحله، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم الله، فالذي ادعاه هو أنه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم والذي ادّعاه الناس لا برهان عليه فلا حاجة لي إليه».. هذا ما قاله أبو عبيد الله بن حماد، فضلا عن تأييد جمهرة مؤرخي الشيعة لصحة هذا النسب!!

أما المحدثون ممن ذهبوا الى صحة نسبهم فهم كثيرون نذكر منهم «كارل بروكلمان» والدكتور أحمد شلبي (انظر الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي) والدكتور ابراهيم شعوط في كتابه (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ). كما ذهب الى هذا الرأي الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور محمد جمال الدين سرور، ومال إليه - بشيء من التردد - المستشرق - كترمير -!!! ومن الجدير بالذكر أن الدكتور «حسن ابراهيم» يبني تأييده لصحة نسب الفاطميين على (شيوع هذا الأمر) وعلى (اعتقاد الناس فيه) وعلى (رأي الشعراء) ونشاط دعاة الفاطميين.. ومن قوله في ذلك: «ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين الى النبي فقد ساعد (اعتقاد الناس) في صحة هذا النسب على نشر سلطة الفاطميين الروحية والزمنية - أو كليهما - في كثير من البلاد الاسلامية إلى حد أن نجح الفاطميون في الحصول على (اعتراف الناس) بهذه السلطة في أكثر بلاد الدولة العباسية دون أن يجدوا معارضة من الرأي العام في ذلك الوقت.

وبدهي أن الوصول إلى اعتراف الناس بأن المهدي وخلفاءه هم الأئمة حقا وأنهم يتصلون بالنسب إلى فاطمة، راجع إلى ذلك النشاط الذي أبداه (دعاة الفاطميين) ذلك أنه بعد تأسيس الدولة الفاطمية في القيروان بقليل، ذهب (شعراء الأغالبة المتشيعون) من أمثال ابن سعدون الورْجيلي إلى القول بصحة هذا النسب»(٢).

ثم ينتهي الدكتور إلى رأيه الشخصي الذي لخصه بقوله: «وعلى الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين في هذه المسألة، فإنني أميل إلى القول - ولو بشيء من التردد - إلى أن نسب الخلفاء الفاطميين إلى فاطمة صحيح، وأنه بسبب هذا الغلو الذي ساد المعتقدات الفاطمية همَّ مناظروهم يدحضون ما ادّعوه من النسبة إلى فاطمة، عسى أن يحط ذلك من شأنهم في أعين رعاياهم»(٣).

ويبدو لنا أنَّ موقف الدكتور ابراهيم شعوط أكثر المواقف تعصبا لصحة نسب الفاطميين وتحمسا لهذا الرأي(٤) وهو لم يكتف بما ذهب إليه ابن خلدون من أن الطعن في هذا النسب (من أوهام المؤرخين أو أنه مخالف لاعتراف الناس) المحكومين لهم أو لرأي الشعراء الواقفين بأبوابهم. كما ذكر الدكتور (حسن ابراهيم) بل إنه جعل هذا الطعن (عملا معاديا للاسلام)!!!

يقول الدكتور شعوط: «إن قضية الطعن في نسب الفاطميين يتولاها رجل علوي هو الشريف أخو محسن محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق، حيث يقول: إن عبيد الله المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديمان الثنوي الأهوازي، وأصله من المجوس.

ثم يعود أخو محسن ويذكر أن سعيداً الذي عرف باسم عبيد الله المهدي

---

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية د/ حسن ابراهيم حسن ص ٦٨.
(٣) المرجع السابق ٦٧.
(٤) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ الطبعة الرابعة مطبعة دار التأليف ١٩٧٦م بمصر صفحات من ٣٤٨ إلى ٣٦٣.

أول خلفاء الفاطميين - إنما كان ابن حداد يهودي مجهول، تزوجت أرملته بالحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون القداح فتبنى سعيداً هذا، وأدبه وعلمه أسرار مذاهب الاسماعيلية، لأن الحسين لم يعقب من زوجته امرأة اليهودي.

وتبع الشريف «أخو محسن» في هذا الرأي، جماعة من أعلام المؤرخين العرب، أمثال أبي بكر الباقلاني، وابن واصل، والذهبي... ومن المؤرخين المستشرقين (ديغويه) و (وستنفلد) و (دوزي).

ثم أخذ أولئك الطاعنون في نسب الفاطميين، يلتمسون ما يظنون أنه يؤيدهم في إنكار نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه.

ويمكن إجمال حججهم فيما يأتي:

أولا: يذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله الفاطمي، حين وصل إلى مصر، اجتمع به بعض الأشراف، وسأله أحدهم وهو الشريف (ابن طباطبا) قائلا: إلى من ينتسب مولانا؟ فأجابه المعز بأنه سيعقد مجلساً يضمهم ويرد عليهم نسبه. فلما انعقد المجلس في القصر، وضع المعز يده على مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلى النصف وقال: «هذا نسبي» ثم مدَّ يده الأخرى بمقدار من الذهب ونثره عليهم، وقال «وهذا حسبي» فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة.

ثم ذكر ابن خلكان: أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فراراً من الجواب، لأنه مدخول في نسبه.

ثانيا: روى الثعالبي في «يتيمة الدهر» أن صاحب مصر، أرسل إلى عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس، كتابا يسبه فيه ويهجوه. فرد عليه عبد الرحمن يقول له: «أما بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك».

ثالثا: ذكروا أن عبيد الله الشيعي - داعية الفاطميين في بلاد المغرب حين علم بسجن المهدي في مدينة سجلماسة، وذهب ليخلصه، وجده مقتولاً،

فأخذ مكانه رجلاً يهودياً كان في السجن، وادّعى أنه هو عبيد الله المهدي صاحب الدعوة.

ومن هنا، وجد الطعن في نسب الفاطميين.

رابعا: اعتمدوا على ما قام به بعض الخلفاء العباسيين، مثل (المعتضد) و (القادر) من حمل العلويين في بغداد، على توقيع محاضر ينفون فيها نسب هؤلاء القوم إلى فاطمة الزهراء.

ويعلق الدكتور شعوط على هذه الاعتراضات التي أوردها بقوله: هذه الأمور الأربعة. تعتبر أقوى ما استند إليه الطاعنون في نسب الفاطميين.

ولكننا - عند التحقيق التاريخي - نجدها لا تصلح للاعتماد عليها في نفي النسب الشريف الى البيت العلوي، عن هؤلاء القوم. وكل واحدة من هذه الأمور التي اعتمدوا عليها، تحمل في طياتها، ما يدحضها ويثبت تلفيقها. وإليك البيان (والحديث للدكتور ابراهيم شعوط):

أولا: إن القول المنسوب إلى الشريف ابن طباطبا من سؤال المعز عن نسبه أظهرت الحقائق الثابتة بالأدلة الواضحة أنه غير صحيح، لأن ابن طباطبا توفي عام ٣٤٨ هـ بينما كان قدوم المعز إلى مصر عام ٣٦٢ هـ فكيف لرجل توفي قبل مجيء المعز إلى مصر بأربعة عشر عاماً، أن يسأله أو يجتمع به؟.

ثانيا: إن رواية الثعالبي التي يتهكم فيها عبد الرحمن الناصر الأموي بالمعز لدين الله الفاطمي يتضح من أسلوبها، أنها نوع من الاستغلال الذي يحدث عادة بين متنافسين على ملك أو زعامة، ومظهر من مظاهر التجاهل للخصم، مهما كانت قوته، لأن العلاقة بينهما، كانت بالغة أقصى حدود التوتر.

ثالثا: أما حكاية اليهودي الذي نصبه أبو عبد الله الشيعي بدل عبيد الله المهدي فهي موضوع تساؤل شديد - منذ قديم - عن الدافع الذي حمل أبا عبد الله الشيعي على هذا التصرف، مع العلم بأن أبا القاسم بن عبيد الله

المهدي كان مع أبيه في ذلك السجن. فكان أولى أن ينصب مكان ابيه. وخاصة أنه تولى الخلافة بعد ذلك، ولما اشتدت الخصومة بين أبي عبد الله الشيعي وعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول، لم يذكر أحد من الفاطميين، أن من مساوئه أنه فكَّر في أمر كهذا، حتى يبرر قتله في نظر الجماهير التي كانت متأثرة بشخصيّة أبي عبد الله الشيعي.

ومع كل هذا - فإننا نجد ابن الأثير في كتابه «الكامل» يقول: «وهذه الأقوال فيها ما فيها.. فياليت شعري. ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة، حتى يخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويسلموه إلى ولد يهودي...!!

وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقد ديناً يثاب عليه؟.

رابعا: أما محاضر الخلفاء العباسيين فنحن لا نحتاج إلى مجهود كبير في معرفة الطريقة التي كانت توقع بها، ومقدار سطوة الخلفاء وبطشهم بمن يخرج على رغباتهم.

وأخيراً.. يقول الدكتور شعوط - بعد مسيرة طويلة:

«فهذا التشكيك في نسب الفاطميين نوع من العداوة الخبيثة للإسلام والمسلمين. حتى يغضوا من قيمة الفاطميين الذين تركوا في مصر كنوزاً ثمينة من العلم والفن لا تزال باقية إلى الآن، والذين قال فيهم بروكلمان: (وعلى الرغم من ضعف الفاطميين الذي أطلع رأسه في سرعة فقد استطاعوا أن يضمنوا لمصر عهوداً متطاولة من الرخاء العظيم...).

ويعقب الدكتور شعوط على عبارة بروكلمان بقوله: «ولعل بروكلمان من خيرة المؤرخين الذين حاولوا أن يعطوا للفاطميين حقهم في التاريخ»[(٥)].

رأينا في نسب الفاطميين:

من الغريب أن يكون أول من تنكر للنسب الفاطمي بعض كبار الشيعة، وعلى رأس هؤلاء الشريف العلوي أخو محسن محمد بن علي بن

(٥) المرجع السابق ٣٥٩.

الحسين بن أحمد ابن اسماعيل بن محمد ابن جعفر الصادق... الذي ألمعنا إلى رأيه في النصوص السابقة، ويصور لنا الشريف أخو محسن ذلك الاضطراب السيء في نسب الفاطميين، فيقول: «وقد كان قرمط يكاتب من سلمية، فلما توفي من كان في وقته وجلس ابنه من بعده كتب إلى حمدان قرمط، فلما ردّ عليه الكتاب أنكر ما فيه لألفاظ كان يعدها عليه فاستراب وأرسل أحد دعاته المسمى بعبدان فلما وصل إلى هناك عرف بموت ذلك الطاغية الذي كانوا يكاتبونه ووجد ابنه فسأله عن الحجة ومن الإمام بعده؟ فقال الابن: ومن هو الإمام؟ قال عبدان: الإمام محمد ابن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه، وكان حجته، فأنكر ذلك كله وقال: محمد بن اسماعيل: لا أصل له. ولم يكن الإمام غير أبي وأنا أقوم مقامه، فرجع عبْدان إلى قرمط فعرفه الخبر وأمره قرمط أن يجمع الدعاة ويعرفهم صورة الأمر، وما تبين له منه، ويقطع الدعوة لمن بسلمية ففعل عبد الله ذلك، ولما قطعوا الدعوة من بلادهم لم يمكنهم أن يقطعوها من غير ديارهم، لأنها كانت قد امتدت في سائر الأقطار وكثر شرها وتزايد خبثها، وذلك كله في سنة ست وثمانين ومائتين».

ويقول الشريف أخو محسن - أيضا - : وكان مبتدأ هذه الدعوة الخبيثة لمحمد بن إسماعيل بن جعفر يزعمهم، ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر مرتبة على ما كانت رتبت إلى أن هرب سعيد المسمى بعبيد الله الملقب بالمهدي من سلمية.. فصار هو الإمام[٦]...!!

وليس هذا كل ما يقوله أخو محسن: فقد ذكر أخو محسن أيضا أن سعيداً أو عبيد الله - كان ابن حداد يهودي مجهول، تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون، فتبنى سعيداً، وأدّبه وعلمه أسرار مذهب الاسماعيلية، وأوصى الدعاة بطاعته، وزوَّجه ابنة عمه أبي الشلعلع.

---

(٦) انظر د/ محمد السعيد جمال الدين: دولة الاسماعيلية في إيران ص٦١.

وقد ذاع قول أخي محسن وأخذ به بعض كبار المؤرخين من أمثال أبي بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) وابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ. (١٢٨٢ م) وابن واصل المتوفي سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه «تاريخ الإسلام».

وقد روي عن أبي محسن أيضا أن دعوتهم ترجع إلى ميمون بن ديصان الثنوي المذهب الذي ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين: إله النور، وإله الظلمة..... ومن هنا قيل إن عبد الله بن القداح - كما وصفه المقريزي - كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وقد اعتنق عبد الله هذا - على ما ذهب إليه أخو محسن - مذهب الشيعة لا للدعوة إلى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق أو إلى ابن محمد، بل لحيلة اتخذها ليجمع حوله أتباعًا.. بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه، وهي تكوين دولة فارسية[٧].

وفي عدد الأجيال التي تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميمون القداح المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري: يقول بعضهم: انها ثلاثة أجيال، ويقول بعض آخر إنها جيلان، ومنهم من يقوم إنها جيل واحد فقط، بل إن هناك من يعتقد أن عبيد الله هو ابن عبد الله القداح نفسه[٨] وذكر النويري أنه «كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن الحسن ابن جهار نجار، الملقب بدندان، وهو بنواحي الكرج وأصبهان، له حال واسعة وضياع عظيمة، وهو المتولي على تلك المواضع، وكان كل من طمع في نواله تقرب إليه بذم العرب، فسمع به عبد الله بن ميمون القداح، وبما ينتحله من بغض العرب، وصنعة النجوم، فسار إليه. وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العين ويقدح الماء النازل فيها، ويُظِهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة (زلفى إلى الله). وتقربًا إلى الله عز وجل بنواحي أصفهان الجبل. فأحضره دندان، وفاتحه الحديث، فوجده كما يحب ويهوى، وأظهر له عبد الله من

(٧) انظر د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص٦٢، ٥٩، ٦٠.
(٨) انظر تاريخ الدولة الفاطمية د. حسن ابراهيم حسن ص٦٤.

مساوىء العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده، فاشتد إعجابه به وقال له: مثلك لا ينبغي أن يطب، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك فقال: إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه، ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام. وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن يتعصب لهذا الدين، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها[٩].

أما ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم المتوفي سنة ٦٩٧ هـ) فينتهي إلى نفي نسبهم في كتابه «مفرج الكروب» معتمداً على حجة قوية جديدة، وهي أنهم لما ملكوا أصبحوا أقوياء فلماذا ستروا أئمتهم؟

يقول ابن واصل: وقد تكلم الناس في أنسابهم فأكثروا وأطالوا، فمن مصحح ومبطل، والله أعلم بغيبه، وقد ذكرت ما قيل في ذلك في التاريخ الكبير إلا أن الذي اعتقدته وحققته من تواريخ كثيرة أن القوم أدعياء لا حظَّ لهم في النسب الهاشمي، فمن المؤرخين من قال إن جدّهم يهودي، ومنهم من قال إنه من الفرس، والنسابون من الفاطميين قد أطنبوا في ذلك وذكروه في كتبهم، وكتب الشريف المرتضى الموسوي نقيب العلويين وأخوه الرضى خطهما بالقدح في نسبهم وأنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب - رضوان الله عليهم - وشهد بذلك أيضا جماعة من أكابر العلويين، ومما يشهد بذلك أن القوم كانوا لا يوصلون نسبهم، بل ينسبون أنفسهم إلى عبيد الله المهدي ثم يقولون: «ابن الأئمة المستورين»، ولو كان نسبهم صحيحاً لصرحوا كما صرح بنو العباس بنسبهم، وأي حاجة بهم إلى الغمغمة، وغاية ما يقولون أن الثلاثة المستورين كانوا يسترون أنفسهم خوفاً من بني العباس فهم لما ملكوا وقهروا وزال عنهم الخوف كان ينبغي أن يصرحوا بأسماء أولئك ولا يكتموهم، إذْ قد زالت العلة المقتضية للكتم[١٠].

---

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية د. حسن إبراهيم حسن ص ٤٠.

(١٠) جمال الدين محمد سالم بن واصل المتوفي سنة٦٨٧ هـ.مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ ٢٠٤/١، ٢٠٥ تحقيق د/ جمال الدين الشيال مطبوعات جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.

ويلخص لنا ابن عذارى المراكشي - رأيه في نسب الفاطميين[١١] فقال عن عبيد الله بن المهدي: «وقد اختلف في نسبه: فادّعى هو أنه عبيد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - وقال سائر الناس إنه دعيّ وإن انتسابه للطالبين دعوة باطلة، وذكروا عن أبي القاسم بن طباطبا العلوي أنه قال: «والله الذي لا إله إلا هو ما عبيد الله الشيعي منا، ولا بيننا وبينه نسب». وقال مقاتل: «هو عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن البصريّ».

وقد فضح القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني نسبه في كتاب «كشف الاسرار وهتك الأستار» وذكر أنهم قرامطة، وأن أبا عبد الله الشيعي أحدث لهم هذا المذهب، ونسبهم هذا النسب. وحكى بعض المؤرخين أن جعفر بن علي كانت له جارية، فغشيها رجل من القرامطة، وقيل من اليهود، دفعت له مالاً، فكان يهواها وتهواه، وقتلت جعفراً مولاها، فولدت جد عبيد الله هذا - فمن خفيت عليه هذه القصة قال: إنه علوي، ومن علمها علم دعوته وكذبه»!!.

ويرى (بدر الدين بن قاضي شهبة)، عند حديثه عن آخر خلفاء الفاطميين «العاضد» أن هذا العاضد، كان شيعيا خبيثا لو أمكنه قتل كل من يقدر عليه من أهل السنة لفعل.. ثم يعرج قاضي شهبة على الفاطميين ونسبهم فيقول عنهم: وكان هؤلاء الطائفة يدعون شرفاء فاطميين، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي. وقيل كان والد عبيد الله هذا يهوديًا من أهل سلميّة من بلاد الشام. وكان حدّاداً. وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب سُمي بعبيد الله، وزعم أنه علوي

(١١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٥٨/١ تحقيق بروفنسال طبع دار الثقافة بيروت.

فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنّفي الأنساب العلوية، ثم ترقب الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثا عدوًّا للإسلام متظاهراً بالتشيع، مستتراً به حريصاً على إزالة الملة الإسلامية.

قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة، كان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم. وكان ما قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم، ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (سورة التوبة آية ٣٢).

وكان له شيعة ببغداد وخراسان. وكانوا يرجفون أن المهدي يظهر بالمغرب ويغلب على الأرض كلها. وكان له دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود، ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم واحتمال كل طبقة منهم، فمنهم من يلقون إليه أنه المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق، وكان إذا ضجَّ الناس من هذا أخذ الدعاة، فمرة يحبسهم ومرة يقتلهم ويقول: ما أمرت بهذا، ويقول الدعاة: هو أمرنا، وبأمره فعلنا، وله أن يمتحننا، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها. وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة، وفي أيامهم كثرت الرافضة، واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد وطوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية. والحشيشة نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم[١٢].

وإذا كان المؤرخان سالفا الذكر: ابن واصل، وقاضي شهبة - مؤرخين يميلان إلى الأيوبيين بصورة واضحة، وبين الأيوبيين والفاطميين ما هو معروف، فقد سقط الفاطميون على أيدي صلاح الدين الأيوبي.

---

(١٢) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٠٤، ٢٠٥ بتحقيق د / محمود زايد دار الكتاب الجديد بيروت ط ١ سنة ١٩٧١ م.

إذا كان هذا فإننا سنلجأ إلى موسوعة ابن تغري بردى «النجوم الزاهرة» التي عقد فيها فصلاً مستقلا عنوانه: «ذكر ما قيل في نسب المعزّ وآبائه» لم يكتف فيه برأيه، وإنما عرض فيه حشداً من آراء المؤرخين الذين سبقوه في مناقشة نسب الفاطميين..

وأول من أورد ابن تغري بردى رأيهم القاضي عبد الجبار الذي لا يعدو رأيه أن يكون رأي أبي محسن السابق، وهو أن جدَّ العبيديين سعيدا الملقب بالمهدي، وكان أبوه يهوديا حداداً بسلمية، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وذكر القاضي عبد الجبار أيضا أن أهل الدعوة أبا القاسم الأبيض العلوي وغيره يزعمون أن سعيداً إنما هو من امرأة الحسين المذكور، وان الحسين رباه وعلمه أسرار الدعوة وزوجه بنت أبي الشلعلع، فجاءه ابنٌ فسماه عبد الرحمن. فلما دخل المغرب وأخذ سجلماسة تسمى بعبيد الله ثم تكنّى بأبي محمد، وسمى ابنه الحسن، وزعمت المغاربة أنه يتيم ربّاه وليس بابنه ولا بابن زوجته، وكناه أبا القاسم وجعله وليّ عهده[(١٣)]. انتهى.

ويورد ابن تغري بردى رأي القاضي أبي بكر الباقلاني الذي يرى أن «القداح جدّ عبيد الله كان مجوسيا، وأن عبيد الله دخل المغرب، وادعى أنه علويّ ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنيا خبيثا حريصاً على إزالة ملة الإسلام؛ أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق؛ وجاء أولاده على أسلوبه وأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض، وبثوا الدعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنّصيرْية والدورزيّة، وكان القداح كاذباً مخترقاً، وهو أصل دعاة القرامطة». انتهى.

وأما ابن خلكان فيقول في نسبهم: «اختلف في نسبهم» فقال صاحب تاريخ القيروان هو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم» انتهى.

---

(١٣) النجوم الزاهرة ٧٥/٤.

وقال غيره: هو عبيد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر المذكور في قول صاحب تاريخ القيروان. وقيل: هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقيل: هو عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضى، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله. والرضى المذكور هو ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر واسم التقي الحسين. واسم الوفي أحمد واسم الرضى عبد الله. وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة: [أسوة بغيرهم من العلويين، وقضاياهم ووقائعهم في ذلك مشهورة].

وإنما تسمى المهدي عبيد الله استتارا. هذا عند من يصحح نسبه ففيه اختلاف كثير. وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب.

وقيل: هو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وقيل: هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن الحسين، وإنما سمى نفسه [عبيد الله] استتارا. وهذا أيضا على قول من يصحح نسبهم والذي ينكر نسبه يقول: اسمه سعيد، ولقبه عبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد القداح، كان كحالا يقدح العين إذا نزل فيها ماء.

وقال ابن خلكان أيضاً: وجاء المعزّ من إفريقية وكان يطعن في نسبه. فلما قرب من البلد (يعني مصر) وخرج الناس للقائه اجتمع به جماعة من الأشراف، فقال له من بينهم الشريف عبد الله ابن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعزّ: سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر المعزّ بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتَبَرٌ، [فسلَّ عند ذلك نصف]. سيفه وقال: هذا نسبي! ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي! فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا».

قلت: وفي نسب المعزّ أقوال كثيرة أُخر أضربت عن ذكرها خوف الإطالة، والظاهر أنه ليس بشريف، وأنه مدّع[١٤]. والله أعلم.

وهذه هي جملة الآراء التي أوردها (ابن تغري بردي).. والتي قدمها مؤرخنا الكبير بين يدي دراسته المستوعبة، التي انتهى منها إلى رأيه الشخصي الذي لخصه في قوله عن عبيد الله المهدي:

«والظاهر أنه ليس بشريف وأنه مدَّع».

على أننا نحب أن نقول: إن قضية إنكار النسب الفاطمي ليست قضية يقتنع بها بعض المؤرخين في هذا المستوى «الأكاديمي» المتخصص، وليست قضية ظهرت بعد الفاطميين، بل هي قضية نشأت معهم منذ يومهم الأول، وهي قضية تناولها الناس في مستويات مختلفة.. فتناولها العامة، وتناولها الشعراء، وتناولها بعض الشيعة أنفسهم، فإنكار نسبهم هو الشائع، وليس صحة نسبهم كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين.

وإذا كان أبو عبيد الله الشيعي الداعي - كما هو معروف - هو الذي تحمل عبء إقامة دولة للفاطميين في المغرب، ولم يكن لأبي عبيد الله المهدي في إقامتها أي فضل، لدرجة أنه عندما كان في طريقه إلى المغرب - بدعوة الشيعي - وجد أن المعارك لا زالت متصلة بين الشيعي والأغالبة في القيروان، فسار غرباً إلى الصحراء تاركاً الشيعي في قتاله دون أن يقدم له أي عون.. حتى ورث ملكا جاهزا قدم له على طبق من ذهب.

إذا كان عبيد الله الشيعي قد فعل كل ذلك، فمعروف أنه في المقابل كان أول عمل قام به أبو عبيد الله المهدي هو اغتيال الشيعي وأخيه أبي العباس بعد عام واحد من نشأة الخلافة الفاطمية[١٥].

وكانت الحجة التي أبرزت لتبرير هذا العمل الإجرامي أن الشيعي كان يريد الاستئثار بالسلطة.. ولكن أحداً من المؤرخين لم يسأل: أيّ سلطة

(١٤) النجوم الزاهرة ٤/٧٦، ٧٧.

(١٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/٤٤٤ والكامل ٦/١٣٤.

تلك؟ إن الجهد كله كان على يد الشيعي وليس للمهدي فيه أي فضل أيرثه هذا دون أن يعطى للشيعي ولو صلاحية الحاجب أو الوزير الأول؟ وهل يليق هذا بأهل البيت؟.

والتفسير الحقيقي الذي نراه مطابقا للعقل أن أبا عبيد الله الشيعي وأخاه أبا العباس - المقتولين معا - قد شكَّا في حقيقة المهدي، وأخذا يدعوان الناس لعصيانه ويقولان لهم: «إن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة» ويقولان كذلك: «إن هذا ليس بالذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه، لأن المهدي يختم بالحجة، ويأتي بالآيات الباهرة».

ويروي المقريزي - الذي بسط هذا الأمر - أن شيخاً من قبيلة كتامة التي نصرت الدعوة الفاطمية دخل على المهدي وقال له: - إن كنت المهديّ فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك[١٦] - فكان جزاء قوله القتل!!

ويسرد لنا المؤرخ الشيعي المعاصر للفاطميين «القاضي النعمان»[١٧] هذه الملحمة التي وقعت بين المهدي والشيعي بتفصيل كاف لا سبيل لنا لاستقصائه، لكننا نقتبس بعض ما جاء به، توضيحا لما أجمله غيره، فيقول: «ولما هيأ الله لوليه ما ذكرناه، وأيده من توفيقه وعونه بما وصفناه تداخل من ذلك أبا العباس أخا أبي عبد الله فساد: وذلك بأنه تطعم بحضرة أبي عبد الله، لما قدم من طرابلس عليه، رئاسته لتقديمه اياه وتعظيمه له، وما كان يظهر من إجلاله، مما قدمنا ذكره، لما كان عليه أبو عبد الله من صالح الأدب وحسن النية، إذْ كان اكبر سنا منه واقدم سابقة، فرعى له ذلك، وحفظه، وأوجب له من أجله ما يوجبه، ثم سار إلى سجلماسة فكانت أمور الناس إليه، وأعينهم نحوه،والأمر من ذلك أمره والنهي نهيه،فلما عدم ذلك، فسدت نيته، وتداخله الحسد، واستفزّه الشيطان، فأغواه، وزين له فاستهواه، فجعل ينكر ذلك ويزري على المهدي عند أبي عبد الله أخيه،

---

(١٦) اتعاظ الحنفا ١/ص ٩٥ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال.

(١٧) ألف كتابه (كتاب افتتاح الدعوة) سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧م) حقق الكتاب فرحات الدشراوي.

ويقع فيه، وأبو عبد الله يتعاظم ذلك وينكره عليه إنكار من يجله ولا يأتي مكروها إليه، وأبو العباس يزيد في ذلك ويستطيل ويؤكد اسباب النفاق ويرمز ويقول ثم واجه أبا عبد الله بالبيان، وفاوضه في الإعلان وقال له: ملكت أمرا وانطاع لك فجئت بمن أزالك عنه فأخرجك منه، وتنقَّصك، واضطهدك، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر والناهي ويشتغل إن شاء بشغل نفسه دون أن يهتضمك من الذل في مثل هذا المقام فلم يزل يبكته بمثل هذا الكلام ويكرره ويقرعه إلى أن أثر فيه وحمله على أن يشافه المهدي ببعضه[18].

... فلما سمع ذلك منه المهدي أيقن بما تداخله وعلم من حيث أتى فرد عليه في ذلك ردا لطيفا، ولم يره أنه علم بحاله ولا أوقفه على اليأس مما منَّته نفسه.

فلما علم ذلك أبو العباس زاد في فساده وأصغى هو إليه وعمل سحره فيه ثم داخل الدعاة والمشائخ وكانوا يعظمونه لما رأوه من تعظيم أبي عبد الله له، وسمعوه من بلاغته وعلمه وتفننه، فأخلد كثير منهم إليه وجعل يرمز لهم بعض الرمز إلى أن صرح لمن رأى أن كلامه وقع فيه موقعا، فطعن لهم في الإمامة وأدخل فيها الشبهة، وجاءهم في موضع محبوبهم ودخل إليهم من جهة مرادهم بأن الذي كان يجب لهم ويستحقونه وينبغي أن يسمع لهم أضعاف ما صنع بهم، وذكرهم انتزاع الأموال من أيديهم وإدخال من أدخل في جملة الرجال معهم من العبيد ومن أهل إفريقية، وغيرهم، وجاءهم من ذلك بضروب يطول ذكرها ومعان يقصر الكتاب عن نهايتها[19].

إلى أن ينتهي القاضي النعمان إلى قوله:

«فاستخف هارون بن يونس الذي كان يقال له شيخ المشائخ الأربالي، إلى أن واجه المهدي بالقول الذي زينه له واستفسده من أجله (أي الشيعي)

---

(١٨) كتاب افتتاح الدعوة ٣٠٦ - ٣٠٩.

(١٩) القاضي النعمان كتاب افتتاح الدعوة ص٣٠٨ - ٣٠٩.

فقال: للمهدي مواجهة: إنا قد شككنا في أمرك فاتنا بآية إن كنت المهدي كما قلت »[٢٠].

وهكذا، ومنذ تأسيس الدولة، تبرز مشكلة النسب الفاطمي، كأكبر مشكلة تواجه هذه الدولة الفاطمية التي لا يدل سلوكها - فضلا عن الموقف التاريخي - على أنها صادقة النسب إلى بيت النبوة.

والجدير بالذكر أن رأس الدولة « المهدي » لم يكن رده على هارون بن يونس، والمتشككين في نسبه، هو الدليل والحجة والاقناع، بل كان رده « الوحيد » وهو الرد الذي لجأ إليه كل الخلفاء الفاطميين - « التآمر والقتل »...

فكما يذكر المؤرخ الشيعي الكبير « القاضي النعمان ». أن المهدي أرسل « ابن القديم » صاحب بريدة إلى المنكرين لنسبه، فجاء بهم، وعلموا أنهم في مأزق، فاعتذروا إليه، فرد ذلك ردا جميلا، وأخرجهم إلى نواحي من البلدان... حدَّدها لهم، وأمر كل وال بقتل من يصل إليه منهم، « بصنوف من القتل » وقتل « ابن القديم » نفسه - الذي علم منه النفاق - وأما ابو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس، فقد خرجا إليه يريدان قصره، على عاداتها فأمر رجلين من رجاله (عزويه بن يوسف وحبر بن تماشت) بالغدر بهما.. فقتلاهما يوم الإثنين ضاحية النهار يوم النصف من جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ[٢١].

وعلى المستوى الشعبي لم يستطع الفاطميون. بغير الدرهم والسيف - إقناع أحد من المصريين والمغاربة بصحة نسبهم، فلم يعْد الأمر أكثر من عقدين من الزمان من نزوحهم من المغرب، حتى كانوا يسبون في أسواق المغرب، وكان قتلهم ومقاومة بدعهم قربة إلى الله، وقد محا المعزّ بن باديس سنة ٤٠٧ هـ، ما كان قد بقي من آثارهم، وأطلق العامة عليهم وسمح بالطعن فيهم وكشف أكاذيبهم ثم خلعهم من على المنابر سنة ٤٣٩ هـ.

---

(٢٠) السابق ٣١٠.

(٢١) السابق ٣١٥، ٣١٦.

وأما في مصر فكما يذكر ابن خلكان، من أن إنكار المصريين للنسب الفاطمي كان انكاراً عاما[٢٢]، ويضرب ابن خلكان لذلك عدة أمثلة منها ما ورد من أن العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته، فرأى ورقةً فيها هذه الأبيات:

إنـــا سمعنـــا نسبـــا منكرا ... يتـلى عـلى المنـبر في الجـامـع
إن كنـتَ فـيما تـدعي صادقا ... فـاذكر أباً بعـد الأب الرابـع
وإن ترد تحقيـــق مـــا قلتـــه ... فـانسب لنـا نفسك كـالطـائـع
أو فـــــدع الأنساب مستورةً ... وادخـــل بنـــا في النسب الواسع
فـــإن أنساب بني هـــاشم ... يقصر عنهـا طمـع الطـامـع[٢٣]

وهكذا في كل المستويات كان إنكار النسب الفاطمي، أمرا شائعا، وكان محل سخرية من الكثيرين. كما يتضح من بعض الأبيات المذكورة آنفا.

ولعل من أبر العوامل التي ساعدت على إنكار النسب الفاطمي من جمهرة الناس سياسة هؤلاء الفاطميين أنفسهم:

سياستهم في دماء المسلمين التي استباحوها.

وسياستهم في أموال المسلمين التي كنزوها وبدّدوها على تابعيهم وحرموا منها عامة الشعب.

وسياستهم في دين الله الذي أضافوا إليه من البدع والمنكرات ما لم ينزل الله به سلطانا.

وسياستهم مع القرامطة أعداء الاسلام الألداء ومغتصبي الحجر الأسود.

وسياستهم في تقريب اليهود والنصارى والاعتماد عليهم في كبريات أمور الأمة، حتى في نشر مذهبهم الشيعي نفسه.

وهذه السياسات في رأيي - أدلة قوية من جملة الأدلة التي يعتمد عليها فى الحديث عن نسب الفاطميين!! ولا يمكن أن تكون بعيدة - كل

(٢٢) انظر حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٦٣.
(٢٣) ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية ص ٢٠٩.

البعد - عن هذا الموضوع، وسوف نتحدث عن هذه (السياسات) بإذن الله، بعد أن نستوفي ما يتعلق تعلقا مباشرا بقضية نسبهم.

الوثيقة: من أدلة نفي النسب الفاطمي:

في ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ صدرت وثيقة في بغداد تليت على المنابر، وشاعت في كل العالم الاسلامي، ووقع عليها أعلام فضلاء بعضهم من العلويين - تنفي صحة انتساب الفاطميين إلى فاطمة.

وقد حدث جدل كبير حول حجية هذه الوثيقة، وقيمتها التاريخية على أساس أن من الممكن، بل الغالب على الظن - أن الضغوط السياسية العباسية هي التي أملتها على موقعي الوثيقة.

لكنَّ الذين يذهبون هذا المذهب لم يقولوا لنا: لماذا لم يعمد العباسيون الخلفاء إلى إحداث وثيقة مماثلة تنفي نسب الأدارسة الذين كانوا أسبق في الانفصال عنهم في المغرب الأقصى؟

كما أنهم لم يقولوا لنا لماذا لم يوعزوا بعمل وثيقة مماثلة تنفي نسب الأمويين في الأندلس، وهم أقوى قوة انفصلت عنهم بعد قيام دولتهم العباسية بست سنوات فقط؟

والإجابة معروفة، وهي أنهم لو فعلوا ذلك لأهانوا أنفسهم ولاستخف الناس بهم وأنكروا عليهم.. أما في الفاطميين فالأمر مختلف.. إنه نسب غير صريح وغير واضح.. بل هو نسب تحيط به الشبهات من كل جانب.

وهذا عامل يجب أن يوضع في التقويم، عند النظر لهذه الوثيقة. وهناك عوامل أخرى تضاف إلى هذا العامل.. ومن أبرزها ذلك الاجماع - خلال وجود الدولة ولاسيما في المغرب ومصر - على إنكار صحة نسب الفاطميين... وقد ذكرنا سابقا صوراً من هذا الاجماع الشعبي على إنكار نسب الفاطميين.. وهو إجماع دفع إليه البدع والخرافات وصور الزندقة التي ظهرت من بعض خلفاء هذه الدولة، فضلا عن سياستهم العامة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية.

لكن بالإضافة إلى هذا الاجماع - فنحن نرى أن لرأي (العلويين) الذين وقعوا على الوثيقة قيمة خاصة.

وإن كنا لا ننكر أن الضغوط السياسية يمكن أن تكون قد تدخلت في الأمر إلا أننا مع ذلك نلاحظ أن الموقعين على الوثيقة، وبخاصة من العلويين - كانوا من العلماء والمخلصين المشهورين بالتقوى والثقة، والذين يصعب الضغط عليهم، كما يفعل مع غيرهم من علماء السوء والفتنة.

وحتى إذا كانوا قد اضطروا لتوقيعها، أفلم تكن هناك فرصه بعد ذلك أتيحت لهم ليعلنوا هذا الإكراه، ويتخلصوا من تبعته، ويتبرءوا منه، فإذا أضفنا إلى هذا ضعف الخلفاء العباسيين في فترة الفتح الفاطمي لمصر وإمكانية الخروج عليهم - كان ذلك أدعى إلى الثقة في هذه الوثيقة.

على أن اسلوب الوثيقة يدل دلالة كبيرة على اقتناع كاتبيها بها.. فالوثيقة تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما شهد به الشهود أن معد بن إسماعيل المستولي على مصر هو معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد وأنهم منتسبون إلى ديصان بن سعيد الذي انتسب إليه الديصانية وأن سعيدا المذكور صار إلى المغرب وتسمى بعبد الله وتلقب بالمهدي وأن هذا القائم بمصر هو منصور الملقب بالحاكم (حكم الله عليه بالبوار والدمار) بن نزار بن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد وأن من تقدمه - من سلفه (الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين) أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ولا يتعلقون منه بسبب، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور ولم يتوقف أحد من أهل بيوتات الطالبين من إطلاق القول في هؤلاء إنهم خوارج أدعياء، وهذا الانكسار لباطلهم كان شائعا بالحرمين وفي أول أمرهم بالمغرب منتشرا انتشارا عظيما، وأن هذا القائم بمصر هو وسلفه (كفار وفساق وزنادقة ملحدون) معطلون وللإسلام جاحدون ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون عطلوا الحدود وأباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسفكوا

الدماء وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية. وكتب في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة، وشهد بذلك من العلويين الشرفاء المرتضى والرضى الموسيان وابن الأزرق الموسوي ومحمد بن أبي يعلى العلوي وجماعة من كبار العلوية، وشهد من الفقهاء المعتبرين الشيخ أبو حامد الأسفرايني، وأبو الحسن القدوري وقاضي القضاة أبو محمد بن الأكفاني وأبو عبد الله البيضاوي، وخلقٌ، وقد قرئ هذا المحضر على المنابر ببغداد وغيرها من البلاد»(٢٤).

ويعلق ابن الجوزي في مرآة الزمان على هذا المحضر، أو هذه الوثيقة، بما يؤيد أن أسلوبها، وكاتبيها، يدلان على صدق محتوياتها، على الأقل من وجه نظر هؤلاء الكاتبين.. يقول ابن الجوزي فيما نقله عنه - أيضا - وأيده فيه، بدر الدين بن قاضي شهبة: «إن المحضر الذي برز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت اسمه ونسبه في هذا الكتاب من السادة والأشراف والقضاة والعلماء والعدول والأكابر والأماثل ما يعرفونه من نسب الديصانية الكفار المنسوبين إلى ديصان بن سعد الحرمي شهادةً يتقربون بها إلى الله تعالى معتقدين ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للناس ولا يكتموه. شهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستئصال ابن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله، وأنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله، ولقب نفسه المهدي ومن تقدمه من سلفه الأنجاس الروافض الكلاب الأرجاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يتعلقون منه بسبب من الأسباب وأنهم كفار فجار ملحدون زنادقة معطلون وللإسلام جاحدون، ولمذهب المجوس معتقدون قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وادعى

---

(٢٤) راجع حوادث سنة ٤٠٢هـ في المطولات: الكامل والبداية والنهاية، وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٦٢/٣ وقد وردت بألفاظ مختلفة قليلا وفي النجوم الزاهرة ٢٢٩/٤، ٢٣٠ حوادث سنة ٤٠٢ هـ.

الحاكم منهم الربوبية. وصنف له بعض الباطنية كتابا ذكر فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي وروح علي انتقلت إلى الحاكم، وقرىء هذا الكتاب بجامع القاهرة، فقصد الناس قتل مصنفه، فسيره الحاكم إلى جبال الشام بناحية وادي التيم وناحية بانياس فاستمال الناس وأعطاهم المال وأباح لهم الخمور والفروج وأقام عندهم مدة يدعوهم إلى معتقد الحاكم فأضل منهم خلقا كثير وهناك قرى كثيرة إلى يومنا هذا يعتقدون خروج الحاكم. وأنه لا بد أن يعود ويمهد الأرض، وهذه خيالات فاسدة وظنون كاذبة نعوذ بالله منها[٢٥].

فالحقيقة أننا إذا تجاوزنا عن الحدة في تعليق ابن الجوزي فإن الاطار العام لتعليقه يؤيد رأينا في قبول الوثيقة، ويؤيد كذلك - منهجنا العام في أن (الجانب السلوكي والديني) من سياسة الفاطميين يجب أن يعتدّ به في النظر إلى صحة نسبهم، ولاسيا وأن سياستهم - في كل نواحيها - لم تكن أخطاء فردية، وإنما كانت سياسة عامة مخالفة - كل المخالفة - للإسلام، ومعادية - كل العداء - لمصالح المسلمين، وتميل كل الميل للنصارى واليهود، وبالتالي أفلا يحق لنا أن نقول: إن هذه الوثيقة كانت مجرد إقرار لواقع وتحصيل لحاصل!!

علاقتهم بالشيعة والقرامطة بخاصة:

ومما يتصل بصحة الوثيقة - أيضا - ويؤكد نفي النسب الفاطمي، رأى الشيعة بعامة، سواء من وقعوا على الوثيقة، أو لم يوقعوا، في صحة النسب الفاطمي.

ومعروف أن الادارسة من الشيعة الصرحاء، الواضحي النسب وقد حكم هؤلاء المغرب الأقصى منذ جدهم إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - ولمدة قرنين تاليين (١٧٢ - ٣٦٣ هـ).

(٢٥) ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية ص ٢١٠، ٢١١ وانظر تعليق بن تغري بردى: النجوم الزاهرة ٤٤/٢٣٠.

وقد كان من المعقول أن يتحد الأدارسة والفاطميون أو أن تكون بينهم علاقات ودّية على الأقل، لكن الذي حدث هو العكس، فقد تعرضت دولة الادارسة في المغرب الأقصى لعداء الفاطميين وهجومهم، فاضطر الادارسة إلى الانسحاب شمالا إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا هناك في بعض القلاع مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر[٢٦] بل إنهم اضطروا للتعاون مع بني أمية في الأندلس، أيام عبدالرحمن الناصر ضد هذه الغارة الفاطمية التي لا تأبه بوحدة في مذهب، ولا بوشيجة نسب ولا عرق -!! إذا كانت هناك وشيجة نسب!!.

ونحن نعتقد أن لرأي القرامطة دلالة عظيمة ووزنا كبيراً في هذا الأمر. فمن المعروف أن أكثرهم رفضوا الإعتراف بصحة النسب إلى عبيدالله المهدي، ودخلوا معه في حرب كلامية، كان من الممكن أن تتطور إلى حرب حقيقية، لولا انشغال المهدي بمشكلاته أمام الثائرين أتباع الشيعي المقتول في المغرب، ولا ينكر أحد أن القرامطة من غلاة الشيعة وأن لرأيهم وزنا في هذا المجال وقد اضطر أبو عبيدالله المهدي - مداراة لهم - إلى أن يخطب ودهم، حيث لم يكونوا يعتقدون في أحقيته بالإمامة وفي أنه بديل لمحمد بن اسماعيل المهدي والقائم في زعمهم، وتمكن عبيدالله في النهاية من تعيين رئيس قرمطي موالٍ له في سنة ٣٠٥ هـ وظل هذا الزعيم على إخلاصه لعبيد الله ثم القائم حتى توفي سنة ٣٢٢ هـ[٢٧]. وقد نجح الفاطميون بعد ذلك في شراء كثير من زعماء القرامطة بهداياهم وأموالهم. بل إن قيام الدولة الفاطمية كان سبباً في إحداث انشقاق في الحركة القرمطية أدى إلى انصراف كثير من أتباعها عنها وعن المذهب الاسماعيلي كله، لانهيار هذه العقيدة الاساسية أمام عينيه[٢٨].

---

(٢٦) انظر احمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ١٩٠.

(٢٧) انظر د/ محمد السعيد جمال الدين: دولة الاسماعيلية في ايران ص٦٢ مطابع سجل العرب ١٩٧٥.

(٢٨) المكان السابق.

وفي المغرب الاسلامي حيث نشأت الدولة الفاطمية وسيطرت ستة عقود لم يقتنع أحد من أهل السنة بها، فضلا عن الثورات التي قامت بعد مقتل عبيد الله الشيعي: فقد بقيت حركات العصيان مستمرة، ولم يكن الأمر أمر العباسيين ولا القرامطة ولا الشيعة العاديين في الخلاف على أبي عبيد الله المهدي فقط - بل إن واحدا من أكبر الدعاة الشيعة في اليمن، وهو (علي بن الفضل) لم يكن مخلصا في ولائه للفاطميين وكان فيما يبدو يعتقد أن أبا عبيد الله المهدي ركب الدعوة الفاطمية سلَّما لتحقيق مآربه الدنيوية. فعندما خرج (علي بن الفضل) على المهدي، وكلَّمه ابن حوشب (الداعي باليمن) في أمر الاتحاد مع الفاطميين، رفض ابن الفضل، وقال له: «إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها إفترسها»!! ولم يكتف (ابن الفضل) بالخروج على عبيد الله المهدي، بل ثار - أيضا - على الداعي ابن حوشب، طمعا في استخلاص اليمن لنفسه[٢٩].

ولما توفي ابن حوشب أمير الدعوة في اليمن، وتقلدها بعده أبو الحسن، مال إلى الحق، وانقلب على الفاطميين، واعتنق مذهب السنة، وجمع الناس وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة وتتبع أبو الحسن أنصار الدعوة الاسماعيلية تتبعا مقرونا بالشدة والعسف[٣٠].

فهذا هو سلوك أقطاب الدعوة الفاطمية إزاء خلفائها.. ألا نرى أنه أسلوب مريب؟!!

ومعروف امر أبي الحسن الذي ذكرناه، والذي تصدَّى لتكذيب صحة النسب الفاطمي، وهو من كبار الشيعة، وجدير بالذكر أنه لما توفي أبو الحسن رجع أحد كبار الاسماعيلية عن شيعته ويدعى إبراهيم بن عبد الحميد الشامي وأقام الخطبة لبني العباس، ولم يزل يتتبع الاسماعيلية ويقتلهم حتى قضى على الكثيرين منهم في اليمن.

(٢٩) انظر د/ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص٧٣ طبع ١٣٩٦.
(٣٠) السابق ٧٨.

ومما يبعث على الشك كذلك - ذلك الاختلاف الكبير في نسب الفاطميين - قال صاحب تاريخ القيروان:

هو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقال غيره:

هو عبيد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر المذكور.

وقيل هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقيل: هو عبيد الله التقيّ بن الوفي بن الرضى وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله والرضى المذكور: ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر المذكور واسم التقي الحسين واسم الوفي: أحمد واسم الرضى: عبد الله. وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم؛ لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس[٣١].

إننا لا نميل إلى القول بأن الفاطميين منتمون إلى اليهود أو النصارى كما يرى بعض المؤرخين.. فليس الأمر هذا أو ذاك، وإنما الذي نؤمن به أنهم قرامطة مشعوذون ركبوا دعوة آل البيت. للوصول إلى الحكم، وهذه الدعوة كانت طريقاً شرعياً من طرق الوصول إلى الحكم في تلك العصور حتى ولو كان ممثلوها غير مؤهلين لا بأفكارهم ولا بسلوكهم - لقيادة هذه الأمة.

وكيف يمكن أن يكون من أهل البيت هؤلاء الذين وضعوا أيديهم في أيدي القرامطة الذين اعتدوا على الحرم واقتلعوا الحجر الأسود.. وفي ذلك يقول ابن كثير الدمشقي المؤرخ:

«إنما حمل القرامطة على الاعتداء على الحرم واقتلاع الحجر الأسود أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا بإفريقية،

(٣١) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٠١/٣، الطبعة الأولى.

ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو ابو محمد عبيد الله بن ميمون القداح. وقد كان صباغاً بسلمية، وكان يهودياً فادعى أنه مسلم، ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية فادَّعى أنه شريف فاطمي فصدقه على ذلك كثير من البربر وغيرهم من الجهلة وصارت له دولة، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويدعون إليه[٣٢].

وفي كل المواقف - أحرجها وأيسرها - كانت علاقتهم بالقرامطة مشهودا بها من الجميع، حتى عند اختلافهم معهم» وعندما عطَّل القرامطة (فريضة الحج)، وضجر جمهور المسلمين من ذلك، ومن أخذهم للحجر الأسود سنة ٤١٧ هـ - فإن الفاطميين، مع أنهم كانوا في قمة قوتهم وبداية مجدهم، لم يتحركوا لإزاحة هذا البلاء عن المسلمين.

يقول ابن حماد:

«وفي أيام بني عبيد في سنة ٣١٧ هـ بُطِّل الحج، وأخذ الحجر الأسود، وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن القرمطي دخل مكة حرسها الله تعالى يوم التّروية فقتل الحجاج قتلاً ذريعاً ورمى القتلى في زمزم وأخذ الحجر الأسود وعرَّى الكعبة وقلع بابها وبقي الحجر عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً ثم ردّوه لخمس خلون من ذي القعدة سنة ٣٣٩ هـ»[٣٣].

أي أنه لنحو اثنتين وعشرين سنة بقي الحجر الأسود مغتصباً، وقوافل الحجيج مهددة ولم يفعل الفاطميون الأشداء المنسوبون إلى آل البيت - أيّ شيء - بل إنهم في هذه الفترة بخاصة كانوا أصدقاء مناصرين معاهدين للقرامطة.. فهل يمكن أن يكون هذا سلوك أهل البيت؟ أو سلوك القرامطة؟

وعندما وقع الخلاف بين الفاطميين والقرامطة، كان القرامطة هم الذين

---

(٣٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٦١/١١ حوادث سنة ٣١٧ هـ وانظر محمد حسين: المتنبي والقرامطة ص٧ نشر الرياض.

(٣٣) أخبار ملوك بني عبيد ص١٥.

يشيعون الطعن في النسب الفاطمي[٣٤]، بل وذهبوا إلى الخلفاء العباسيين يطلبون عونهم على الفاطميين الأدعياء، لكن الخليفة العباسي كان مدركاً لحقيقة العلاقة المشتركة بينهم فرفض تقديم العون.. ويروي ابن تغري بردى هذه الواقعة فيقول:

ولما استتب الأمر للمعزّ الفاطمي بمصر قطع الإتاوة عن القرامطة، وهي ثلاثمائة الف دينار، ولما بلغ القرمطي ذلك عظم عليه، لأن المعزّ كان يصافيه لمَّا كان بالمغرب ويهاديه، فلما وصل إلى مصر قطع ذلك عنه وسار القرمطي، واسمه الحسن بن أحمد ابن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة بخْتيار أن يمده بمال ورجال ويوليه الشام ومصر ليخرج المعزّ منها، فامتنع الخليفة المطيع بالله من ذلك، وقال: كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون (يعني بني عبيد) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء؛ وأما هؤلاء (يعني القرامطة) فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود، وفعلوا ما فعلوا، فقال عز الدولة بختيار للقرمطي: اذهب فافعل ما بدا لك وقيل: إن بختيار أعطاه مالا وسلاحا. فسار القرمطي إلى الشام ومعه أعلام سود. وأظهر أن الخليفة المطيع ولاه وكتب على الأعلام اسم المطيع عبد الكريم، وتحته مكتوب «السادة الراجعون إلى الحق» وملك القرمطي الشام ولعن المعزّ هذا على منبر دمشق وأباه؛ وقال: هؤلاء من ولد القدَّاح كذابون مخترقون أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم؛ ومن عندنا خرج جدهم القداح»[٣٥].

فهكذا - انتهى الأمر - بين الفاطميين والقرامطة[٣٦]، وانكشف أمرهم جميعا.

---

(٣٤) انظر د/ محمد محمد حسين: المتنبي والقرامطة ص١٤، ١٥ نشر الرياض.
(٣٥) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ٤/٧٤.
(٣٦) انظر د/محمد محمد حسين: المتنبي والقرامطة ص٣.

آراء المستشرقين في النسب الفاطمي:

أورد بعض الكتاب في مجال الاستدلال على صحة النسب الفاطمي آراء بعض المستشرقين الذين ينحون هذا المنحى.

ونحن - ابتداء نؤمن بأن هذا الرأي الاستشراقي من مصلحته تزكية هذا الاتجاه، لأن إسلاما من نوع الإسلام الذي انتهجه الفاطميون، ولأن سياسة من نوع سياستهم تجاه المسلمين، وسياستهم الموالية لليهود والنصارى - في المقابل - هذا الإسلام وتلك السياسة يخدمان الأهداف الاستشراقية.

لكن مع ذلك، فإن الضمير العلمي لبعض المستشرقين قد جعلهم يعترفون بحقيقة النسب الفاطمي والدولة الفاطمية المنتحلة.

فقد اعتبر (دي غويه) أن عبد الله بن ميمون هو المؤسس للمذهب القرمطي وجدّ الخلفاء الفاطميين في الوقت نفسه، وهو يقول في ذلك:

كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة ذلك أن حزباً خامل الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة، وينتهي بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة في المغرب.. إلى أن يقول: فإنه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة، قام عبد الله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب.. الخ.

ويقول دي غويه في موضع آخر: «إذا ما تناولنا الكلام على الفاطميين والقرامطة، فإنما نتكلم عن طائفة واحدة»[٣٧].

وقد ذهب نيكلسون إلى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية كان اقصى ما وصلت إليه تلك المؤامرة القوية الدعائم، التي تم تنظيمها بمهارة فائقة، والتي شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي الفارسي الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن، وقد تملكت نفسه الكراهة في أبشع صورها للعرب،

---

(٣٧) د/ حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص٥٩ (نقلا عنه).

والاحتقار للإسلام والمسلمين، مدفوعا إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة، وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعا مبادءها كلاًّ على قدر عقله واستعداده، وتعبث بأشد الميول وأقواها، وتغرّر بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية للجمع بين كل الساخطين في صورة مؤامرة ترمي الى قلب النظام الحاضر. وهذا كله مما حدا بعبد الله بن ميمون (جد الفاطميين والقرامطة) على ما ذهب إليه دوزي: إلى العمل على استخلاص الحكم إن لم يكن لنفسه فلأولاده من بعده[٣٨]:

- ومع هذا فنحن ننظر إلى الرأي الاستشراقي - في عمومه - نظرة متحفظة - كما أشرنا - فيما يتعلق بالنسب الفاطمي، لأننا لا نبرئهم من الميل لهذه الدولة.

السياسة العامة للخلفاء الفاطميين وخروجها على الإسلام:

ليست السياسة التي تـؤخذ على الفاطميين، سياسة خاصة، سار عليها واحد منهم أو اثنان أو ثلاثة، ولم يكن خلفاء الفاطميين الأربع عشرة خليفة (عدة خلفاء بني أمية) يتراوحون في هذه السياسة بين ملتزم بها ونافر منها، بل كانت سياسة الفاطميين تسير على وتيرة واحدة فيما يتعلق بالسياسات التي أشرنا إليها وهي:

١ - سياستهم الدموية والظالمة للرعية.

٢ - وسياستهم المالية.

٣ - وسياستهم البدعية في الدين.

٤ - وسياستهم في تقريب النصارى واليهود، اللهم إلا إذا أحسّوا بخطر ثورة الشعب، وباستفحال أمر اليهود والنصارى.

---

(٣٨) المكان السابق.

٥ - وكذلك كانت سياستهم مع القرامطة اللهم إلا حين أحسوا بخطورتهم عليهم، واختلفوا معهم حول الأطماع والنفوذ.

ونحن نستطيع أن نذكر للخلفاء الأمويين بعض الأخطاء، وأن نشير إلى بعض خلفائهم الظلمة، وكذلك الأمر في العباسيين، وفي المماليك، والعثمانيين لكننا، في المقابل، لا نستطيع أن نذكر أن المظالم في الدماء والأموال وإهدار الدين كان سياسة عامة، وأن كل الخلفاء - في أية دولة من الدول الإسلامية - كانت تلتزم بسياسة هذه أسسها...

اللهم إلا الفاطميين، الذين شذوا، وبنوا سياستهم تجاه الشعوب التي حكموها على السيف والظلم، والمبالغة في الدماء، ولم يشذ منهم خليفة عن هذه «القاعدة الشاذة».

ففي المغرب كانت هذه هي سياسة «عبيد الله المهدي» الذي تولى «خمسا وعشرين سنة، و«اسماعيل القائم» الذي تولى أكثر من اثنتي عشرة سنة و«المنصور» الذي تولى سبع سنوات، «المعزّ» الذي حكم المغرب ومصر معا لمدة ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر.

وفي مصر - بعد المعز - حكم «العزيز» و«الحاكم» و«الظاهر» و«المستنصر» و«المستعلي» و«الآمر» و«الحافظ» و«الظافر» و«الفائز» و«العاضد».

فالمهدي - مؤسس الدولة - قتل خيرة أصحابه - كما نعلم - بطريقة يغلب عليها التآمر والمكر، وهو أمر لا يليق ببيت النبوة، وليست من أخلاق علي ولا فاطمة - رضي الله عنهما.

ولما قتل الشيعي وأخوه، قال بعض الأغالبة: «إن من قتل وليه كان إلى قتل عدوه اسرع» فأمنهم المهدي، ثم تركهم ينصرفون إلى بيوتهم، وأمر بالقبض عليهم، وقتلهم صبرا على باب رقادة، وجعلت رؤسهم عليه[٣٩]،

---

(٣٩) القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة ٣٢١.

وقد ظن الباقون من الأغالبة «المؤمنين» ان أولئك الذين قتلوا كانوا هم البغية، لكنه قبض بعد ذلك على طبقة ثانية منهم، فقتلوا، ثم امر بطلبهم حيث كانوا من البلدان فقتلوا بكل مكان(٤٠).

واستمرت هكذا سياسته مما كان سببا في قبول الناس لدعوة الثائر «أبي يزيد بن مخلد».

اما ابنه القائم فكان «اسوأ حالا من أبيه، وزاد شره على شره اضعافا مضاعفة، جاهر بشتم الأنبياء، وكان ينادي في الأسواق بافريقية والمهدية بلعن عائشة، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع(٤١).

وقد كانت لإسماعيل القائم صور من التشفي والتمثيل بالثائر أبي يزيد وأتباعه تنم عن قسوة بالغة، فعندما مات أبو يزيد متأثرا بجراحه، أقاموا جثته كأنه حي بعد أن خاطوا أوصاله، وصار كأنه قائم، وقدّد لحمه، وملح وأمر بحمل جميع ذلك وبعث برءوس القتلى وبكتاب إلى مدأم الفتى فقرأ الكتاب على المنبر، وطوفت الرءوس بالقيروان(٤٢).

ولم يكتف اسماعيل المهدي بهذا الذي فعله (فتيانه) بجثة أبي يزيد المكداد الملقب بصاحب الحمار، بل إنه شارك في الأمر، فمثّل في حضرته بأبي يزيد تمثيلا من أسوإ ما عرف في تاريخ الاسلام.. يقول المؤرخ الجزائري ابن حماد: «ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم وصوله جلس في مجلسه ودخل عليه القاضي فأدناه وقربه وأجلسه، وأذن للناس كافة فدخلوا عليه أفواجا وسلموا عليه وهنأوه بالقدوم والفتح، ونهض من مجلسه فحجب الناس وصعد إلى قبة مشرفة فجلس فيها مع خاصته وأمر بأبي يزيد فأخرج من تابوت كان فيه، وألبس قميصا، وقلنسوة بيضاء وأركب جملا وأردف خلفه من يمسكه، والصق إلى جنبه عودان وربط اليهما، وجعل

---

(٤٠) المصدر السابق ٣٢٢.

(٤١) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية ص٢٠٧ تحقيق محمود زايد بيروت ١٩٧١.

(٤٢) أخبار ملوك بني عبيد ١.

عليها قردان قد علّما، فكانا يصفعانه ويعبثان بلحيته وأخرج من صبرة من الباب الشرقي فطوف بالقيروان وبصبرة، ثم صرف إلى التابوت»[٤٣].

وحتّى (الفضل) بن أبي يزيد، فإنه لم يستثن من هذا الأمر، بل أصابه على يد الخليفة اسماعيل بعض ما أصاب أباه..

يقول ابن حماد:

«وفي يوم السبت لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ٣٣٦ هـ طيف بالقيروان برأس الفضل بن أبي يزيد بعث به باطيط بن يعلى الزناتي مع ولده وكان قتله إياه غدرا بجوار باغية فأعطى ولد باطيط ألف مثقال ووصله وحمله ووصل أصحابه، وبعث برأس فضل وجثة أبيه أبي يزيد إلى صقلية مع حسين بن علي بن أبي الحسين فعطب المركب وذهب رأس فضل وطفت جثة أبي يزيد على الماء فردت إلى المهدية وصلبت على مجرى الخابية[٤٤].

أما المنصور الذي ولي لمدة سبع سنوات فقط، فقد سار على السياسة نفسها، ولعل قصر حكمه - نسبيا - حال دون استفحال أمره، ولاسيما وأنه ورث الأمر بعد أن هدأ له القائم الأمور، وقضى على الثورة، وكان الناس - في عهده - لا يزالون يضمدون جراحهم، ويهدئون روعهم من آثار ما فعله القائم بأتباع أبي يزيد بن مخلد بن كيداد الثائر.

فلما جاء المعز لدين الله الفاطمي، ظهرت السياسة الفاطمية «الثابتة» مرة أخرى.

والمؤرخ (ابن تغري بردى) ينقل رأي المؤرخين أبي عبد الله الذهبي صاحب تاريخ الاسلام وشمس الدين أبي المظفر صاحب كتاب (مرآة الزمان) في المعز لدين الله الفاطمي، فيقول:

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخ الاسلام: «وهو أول من تملك

---

(٤٣) أخبار ملوك بني عبيد ١.

(٤٤) السابق ١٦.

ديار مصر من بني عبيد [الرافضة] سنة احدى وأربعين وثلثمائة وسار في نواحي افريقية ليمهد مملكته، فأذل العصاة واستعمل على المدن غلمانه واستخدم الجند، ثم جهز مولاه جوهرا القائد في جيش كثيف، فسار فافتتح سجلماسة، وسار حتى وصل الى البحر المحيط وصيد له من سمكه، وافتتح مدينة فاس، وأرسل بصاحبها وصاحب سبته أسيرين إلى المعز ووطأ له جوهر من أفريقية إلى البحر سوى مدينة سبته فإنها بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس».

وقال الشيخ شمس الدين أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان:

«إنه كان مغرًّى بالنجوم (يعني المعز) والنظر فيما يقتضيه الطالع، فنظر في مولده وطالعه فحكم له بقطع فيه، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه؛ فأشار عليه أن يعمل سردابا تحت الأرض ويتوارى فيه إلى حين جواز الوقت؛ فعمل [على] ذلك، وأحضر قواده وكتابه وقال لهم: إن بيني وبين الله عهدا في وعد وعدنيه. وقد قرب أوانه وقد جعلت نزار ولدي وليّ عهدي بعدي، ولقبته العزيز بالله، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أموركم مدة غيبتي، فالزموا الطاعة له واتركوا المخالفة واسلكوا الطريق السديدة، فقالوا: الأمر أمرك، ونحن عبيدك وخدمك؛ ووصى العزيز ولده بما أراد، وجعل القائد جوهراً مدبره والقائم بأمره بين يديه، ثم نزل إلى سرداب اتخذه وأقام فيه سنة؛ وكانت المغاربة إذا رأوا غماما سائرا ترجل الفارس منهم إلى الأرض وأومأ بالسلام يشير [إلى] أن المعزّ فيه، ثم خرج المعز بعد ذلك وجلس للناس، فدخلوا عليه على طبقاتهم ودعوا له فأقام على ما كان عليه»[٤٥] انتهى.

وقيل إن المعزّ لدين الله الفاطمي لما دخل مصر كان معه خمسمائة جمل موسوقة ذهبا عينا، وأشياء كثيرة غير ذلك»[٤٦]... (اغتصبها من المغرب)!!.

---

(٤٥) النجوم الزاهرة ٤/٧٠، ٧١.

(٤٦) المكان السابق.

ومن حيل المعزّ الداخلة في باب الدجل والشعوذة والخداع أنه لما دخل القاهرة احتجب في القصر، وبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، وهو متوفر في النعم والأغذية المسمنة والأطلية التي تنقي البشرة، وتحسن اللون. ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب، وزعم أنه كان غائباً في السماء وأن الله رفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعبا وخوفا(٤٧).

وبالإضافة إلى النقول التي أخذناها عن ابن حماد وابن تغري بردى في شأن المعز الفاطمي - تزخر كتب التاريخ بأخبار كثيرة عن المعزّ تؤيد الخصائص التي ذكرناها...

فمن الحوادث الطريفة - والغريبة - ما أورده ابن خلكان في ترجمته للمعزّ الفاطمي: أن الخليفة أمر أولاده ورجالات دولته بالترجل على يدي جوهر الصقلي عند ذهابهم لوداعه حين خروجه على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر.

وإلى هنا والخبر عادي لا يستحق التعليق.. أما بقية الخبر فيقول: إن المعز أمر صاحب برقة بالترجل لجوهر عند لقائه وتقبيل يده، وقد كبر على الوالي ذلك!، وبذل مائة ألف دينار على أن يعفى من ذلك، ولكنه لم يظفر بشيء(٤٨).

ونحن والله نعجب من هذا الإصرار على إذلال الناس على الرغم من امتناعهم وبذلهم مائة ألف دينار، وما فائدة هذا السلوك الفاطمي الغريب عن الإسلام؟ وهل هذا من سنة محمد ﷺ؟!!

وأما ابنه العزيز بالله، فهو الذي وضع له المسلمون تمثالا ورقياً لامرأة تمدّ يدها إليه وتقول له: بالذي أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بعيسى نسطورس، وأذلَّ المسلمين بك إلا ما قضيتَ ظُلامتي(٤٩)»؛ لأنه كان قد

(٤٧) المصدر السابق ٤/٧٤.

(٤٨) وفيات الأعيان ترجمة المعز لدين الله الفاطمي.

(٤٩) د/ محمد محمد حسين: المتنبي والقرامطة ٣٦ طبع منشورات دار الرفاعي - الرياض.

أطلق يد النصارى واليهود في كل شيء، حتى في أمر الدعوة للمذهب الفاطمي!!

ويأتي بعد العزيز - «الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي يعتبر نموذجاً اجتمعت فيه كل المآخذ التي اتسمت بها الدولة الفاطمية في مجموعها..!! وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن هذا الرجل لم يكن مجنوناً، كما شاع في بعض الدراسات، وإنما هو نموذج لمستهين بالدماء، بدعي، ظالم، يعكس بسلوكه المبادىء المختلطة والاتجاهات غير الاسلامية التي قامت عليها الدولة الفاطمية!! - ويوجز لنا (ابن حماد) أخلاق الحاكم وسيرته المضطربة فيقول:

«وكان الحاكم جواداً بالمال، سفاكا للدماء قتل عدداً كثيرا من أماثل أهل دولته وغيرهم صبرا. وكانت سيرته من أعجب السير، وبنى الجامع براشدة، والجامع بظاهر القاهرة المعزية، وأنشأ عدة مساجد بالفراقة وغيرها وجرت في أيامه أمور كثيرة عجيبة منها أنه كان في صدر خلافته أمر بكتب سب الصحابة على حيطان الجوامع والقياسير والشوارع والطرقات وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبَ وكان ذلك في سنة ٣٩٥ هـ، ثم أمر بقلع ذلك ونهى عنه وعن فعله في سنة ٣٩٧ هـ، وتقدم بعد ذلك بمدة فضرب من يسب الصحابة وشهَّره. وكان في شهر رمضان من سنة ٣٩٩ هـ، يمنع الناس من صلاة التراويح، واجتمع الناس في الجامع وتخوَّف من سوء العاقبة... وتقدم أبو الحسن ابن جد الدقاق فصلى بالناس الشهر كله أجمع، وقتل بعد ذلك في اليوم الثاني من ذي القعدة في السنة، ولم تُصَلَّ التراويح إلى سنة ثمان وأربعمائة.

وكان أمر بقتل الكلاب في سنة ٣٩٥ هـ فلم يكن يُرى كلب في الشوارع والأزقة إلا قتل. وكان نهى عن بيع الفقّار والملوخيا وكنب الترمس المتخذة والجرجير والسمك الذي لا قشر له وأمر بالتشديد في ذلك والمبالغة في تأديب من يتعرض لبيع شيء منه وظهر على جماعة أنهم باعوا شيئا من ذلك فضربهم بالسياط وطيف بهم وضربت أعناقهم.

وفي سنة ٤٠٢ هـ منع من بيع الزبيب قليله وكثيره على سائر أنواعه

وأصنافه، ونهى التجار عن حمله إلى مصر، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كثيرة على سائر أنواعه وأصنافه ذكر أن مبلغه ألف وثمانمائة قطعة، وأحرق جميعها بظاهر الجسر على شاطىء النيل، وذُكر أن مقدار النفقة على إحراقها خمسمائة دينار!!.

وفي هذه السنة منع من بيع العنب وأنفذ الشهود إلى الجزيرة حتى قطع كثيرا من كرمها، وشيدت بالمصر، وجمع ما كان في المخازن من جرار العسل، ذكر أنها كانت خمسة آلاف قطعة، وحملت في محرم سنة ٤٠٣ هـ بمحضر الشهود إلى وسط الجسر وكسرت وقلبت في البحر»[٥٠]. هذا ما أورده مؤرخ مغربي في «الحاكم بأمر الله»... هو ابن حماد الصنهاجي»..

- أما ما أورده عنه مؤرخ مشرقي - مصري - مشهود له بالتخصص والدقة، وهو المؤرخ ابن تغري بردى - فهو لا يقل - بحال - عما أورده المؤرخ المغربي...

- لقد عرض ابن تغري بردى عدداً من النصوص الطويلة، للعلامة شمس الدين أبي المظفر بن قزاوغلى في تاريخه (مرآة الزمان) وللحافظ أبي عبد الله الذهبي في تاريخه، ولابن الصابيء، وكلها نصوص تتعرض لمساوىء (الحاكم) بتفصيل كبير، وتبين تناقضه، وتخريبه، وجرأته على الصحابة، وفساد عقيدته، وبدعه التي استحدثها.... وذهب بعضها إلى أنه ادَّعى الربوبية!!

لقد وصفه أبو المظفر - كما أورد له ابن تغري بردى - بأنه امتنع من دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في الشمس ليلاً ونهاراً، ثم عنَّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة، وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى، وكتب على المساجد والجوامع سبّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم في سنة خمس وتسعين وثلثمائة، ثم محاه في سنة سبع وتسعين، وأمر بقتل الكلاب وبيع

---

(٥٠) ابن حماد أخبار ملوك بني عبيد ٥٢، ٥٣، ٥٤.

الفقاع، ثم نهى عنه، ورفع المكوس عن البلاد وعما يباع فيها، ونهى عن النجوم، وكان ينظر فيها، ونفى المنجمين وكان يرصدها؛ ويخدم زحل وطالعه المريخ، ولهذا كان يسفك الدماء. وبنى جامع القاهرة وجامع راشدة على النيل بمصر، ومساجد كثيرة، ونقل اليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة؛ ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها »[٥١].

إلى آخر ما أورد ابن تغري بردى - عن ابن المظفر - من كلام طويل.

أما (الحافظ الذهبي) فيصف «الحاكم» بأنه كان جواداً سمحاً خبيثاً ماكراً، رديء الاعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها؛ فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع، وأمر العمال بالسب في الأقطار في سنة خمس وتسعين وثلثمائة، وأمر بقتل الكلاب في مملكته، وبطل الفقاع والملوخيا، ونهى عن السمك، وظفر بمن باع ذلك فقتلهم؛ ونهى في سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب ثم جمع شيئا عظيما فأحرق الكل؛ ومنع بيع العنب وأباد كثيرا من الكروم وأمر النصارى بأن تعمل في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرطال بالمصري؛ وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي الخشب في زنة الصلبان أيضا، وأن يلبسوا العمائم السود، ولا يكنزوا من مسلم بهيمة، وأن يدخلوا الحمام بالصلبان ثم أفرد لهم حمامات، وأمر بهدم الكنيسة المعروفة القمامة، ولما أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كمه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع، ثم بدا له فقتلهما صبرا[٥٢].

---

(٥١) النجوم الزاهرة ١٧٦/٤.

(٥٢) المكان السابق، وانظر ابن القاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية ٢٠٨.

أما ابن الصابيء، فيروي عنه ابن تغري بردى، قصة هي من عجائب الدهر، ولا يمكن أن يرتكبها مسلم، مهما كان ضعف إيمانه... ومهما قال القائلون في أمر (الحاكم بأمر الله) هذا..، ومهما التمس له بعضهم العذر، فستبقى هذه القصة، التي تمثل مشروعاً (لإبادة جماعية لشعب مصر) دليلاً - بحدِّ ذاتها وبما اكتنفها من بشاعات - على كذب دعاوي الفاطميين بأنهم من أهل البيت... أو أنهم من المسلمين العاديين...

فلقد كان من فساد أحوال الحاكم أن المصريين الذين ابتلوا به درجوا على السخرية منه - كعادتهم مع حكامهم الفاسدين - وقد وضعوا في طريقه - مرةً - تمثال امرأة من قراطيس في يدها رقعة بها سب للحاكم وأسلافه، فعاد الحاكم من جولته إلى القاهرة، بعد أن رأى التمثال، وقرا ما في الرقعة،ونزل في قصره،واستدعى القوادوالعرفاء، وأمرهمبالمسير إلىمصر، وضربها بالنار، ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها. فتوجه إليها العبيد والروم المغاربة، وجميع العساكر[٥٣]. وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم، وأوقعوا النار في أطراف البلد، فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام، والحاكم يكرب في كل يوم الى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح، ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع ويقول: لعنهم الله: من أمرهم بهذا. فلما كان اليوم الرابع، اجتمع الأشراف [والشيوخ] إلى الجوامع ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء، فرحمهم الأتراك ورقوا لهم، وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم، وكان أكثرهم مخالطا لهم ومداخلا ومصاهراً، وانفرد العبيد، وصار القتال معهم؛ وعظمت القصة وزادت الفتنة، واستطهرت كتامة والأتراك عليهم، وراسلوا الحاكم، وقالوا: نحن عبيد ومماليك، وهذا البلد بلدك وفيه حرمنا وأموالنا وأولادنا وعقارنا، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة. فإن كان هناك باطن لا نعرفه فأخبرنا به، وانتظرنا

(٥٣) النجوم الزاهرة ٤/١٨٠، ١٨١.

حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه. وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفا لرأيك فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون والمخالفون، فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، ولعن الفاعل له والآمر به، وقال: أنتم على الصواب في الذب عن المصريين، وقد أذنت لكم في نصرتهم والإيقاع بمن تعرض لهم، وأرسل إلى العبيد سرّاً يقول: كونوا على أمركم؛ وحمل إليهم سلاحاً قوّاهم. وكان غرضه في هذا أن يطرح بعضهم على بعض، وينتقم من فريق بفريق. وعلم القوم بما يفعل، فراسلته كتامة والأتراك: قد عرفنا غرضك، وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم، وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المهج. ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة ونستنفرن العرب وغيرهم؟ فلما سمع الرسالة، وكانوا قد استظهروا على العبيد. ركب حماره ووقف بين الصفين وأومأ للعبيد بالانصراف فانصرفوا، واستدعى كتامة والأتراك ووجوه المصريين واعتذر إليهم، وحلف أنه بريء مما فعله العبيد؛ وكذب في يمينه؛ فقبّلوا الأرض بين يديه وشكروه، وسألوه الأمان لأهل مصر، فكتب لهم، وقرىء الأمان على المنابر، وسكنت الفتنة، وفتح الناس أسواقهم وراجعوا معايشهم واحترق من مصر مقدار ثلثها، ونهب نصفها. وتتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم، وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن، وقتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار. واستغاث قوم.. من العلويين الأشراف إلى الحاكم(٥٤)، وذكروا أن بعض بناتهم في أيدي العبيد على أسوأ حال، وسألوه أن يستخلصهن؛ فقال الحاكم: [انظروا] ما يطالبونكم به عنهن لأطلقه لكم، فقال له بعضهم: أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا فقد اطّرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك(٥٥) بمثل هذه الفضيحة، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيره. فحلم عنه الحاكم وقال له: أنت أيها الشريف محرج ونحن حقيقون باحتمالك وإلا غضبنا عليك.

(٥٤) يلاحظ إهانة الحاكم للعلويين وتركهم يذوقون العار مثل الشعب.. فهل الفاطميون علويون؟!!

(٥٥) حتى العلويون خدعوا أنفسهم فيه.. وقت المحنة!!

وزاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالا بعد حال من كل ما تتحرق به العادات وتفسد الطاعات.

ثم عنَّ له أن يدَّعي الربوبية، وقرب رجلا يعرف بالأحزم ساعده على ذلك، وضم إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة[٥٦].

فهل بقي مجال للدفاع عن الحاكم، أو التماس أعذار له، أو الزعم بأنه من بيت النبي وينتسب إلى فاطمة؟

وهل كان عهده عهد رخاء؟

وهل كان إلا كلاحقه المستنصر في مستوى رخائه؟ وزاد على كل من سبقوه أو لحقوه في تحليله وتحريمه، وكأنه يملك حق التحليل والتحريم، وفي دعواه الربوبية وعلم الغيب كما قال الشاعر الذي سخر منه في بطاقة أرسلها للحاكم:

بالجور والظلم قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة[٥٧]
إن كنت قد أوتيت غيبا ... بيِّن لنا كاتب البطاقة!!

ويقال إنه خرس بعدها فلم يدَّع الربوبية ولا علم الغيب قط.

وأما من ولي الأمر بعد الحاكم وهم: الظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد، فقد كانت سيرتهم صوراً مكرورة من سالفيهم، وسوف نذكر - بإذن الله - طرفا من الغلاء الذي أصاب الناس في عهدهم، والبذخ الذي عاشوه هم وأتباعهم خلال حديثنا في الصفحات التالية - عن سياسة الفاطميين المالية مما يعتبر مؤشرا على سياستهم بعامة.

وإلى جانب ما ذكرنا فإنه من الغريب الذي استحدثه الفاطميون إيثارهم لليهود والنصارى في أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة، بحيث ارتبط هذا المنصب الخطير بهم... بل إن (داعي الدعاة) لهم في

---

(٥٦) المكان السابق.

(٥٧) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ٢٠٩.

بعض العصور كان من النصارى، وذلك فضلا عن رجال الضرائب والكتابة والدواوين. وهذه سمة غريبة يكاد ينفرد بها الفاطميون في المشرق. وممن تولى لهم الوزارة من النصارى: زرعة بين نسطوروس، وأخوه صاعد بن عيسى بن نسطوروس، وأبو سعد منصور في خلافة المستنصر، وممن تولاها لهم من اليهود: يعقوب بن كلس في خلافة العزيز، وأبو منصور صدقة بن يوسف الغلاص، وابن أبي سعد ابراهيم بن سهل التستري(٥٨).

فهل تقبل جماعة مسلمة، أو مذهب إسلامي، أن يكون (داعي الدعاة) من النصارى؟!!

سياسة الفاطميين الدينية:

كان الفاطميون من أجرأ الناس على استحداث البدع والمنكرات التي لم ترد في كتاب ولا سنة، وكانوا من أجرأ الناس على سبّ صحابة رسول الله، وكانوا يستبيحون دماء مخالفيهم، ومن لا يرضون عنهم، من المسلمين بطريقة بشعة لا تتفق مع الاسلام لا نصًّا ولا روحا، ولا هي مما عرف عن سلوك رسول الله ﷺ ولا صحابته ولا تابعيه ولا آل بيته...

وهل تنازل الحسن بن علي (رضي الله عنهما) لمعاوية عن الخلافة إلا احتراماً لدماء المسلمين وحقنا لها؟

فمن أين للفاطميين بهذا النهج الدموي الذي قامت عليه دولتهم، وعاشوا عليه بعد أن استقرت قواعد ملكهم؟ ومن أين لهم هذه البدع التي لا أصل لها؟

- إننا إذا رجعنا إلى مخطوطة «أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم» لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد، وهو المخطوط الذي ذكرنا أنه يميل إلى صحة نسبهم في آل البيت، كما ذكرنا في صدر هذا البحث عند عرضنا لآراء الذاهبين هذا المذهب.. لو أننا رجعنا إلى هذا المخطوط، ودرسنا

---

(٥٨) د/جمال الدين الشيال: دراسات في التاريخ الإسلامي ص٥٢.

فيه بعض النصوص التي تتعلق بسياسة الفاطميين وسيرتهم، ثم عرضناها على منهج النقد التاريخي، بعيدا عن الواجهات الظاهرية، والدعاوي الكلامية، لتبين لنا - بيقين - أن من المستبعد عقلا ومنطقا أن يكون هؤلاء القوم من آل البيت، لا من قريب ولا من بعيد، مع أن الرجل - كما ذكرنا - مال إلى صحة نسبهم.

وقد كان للفاطميين من العادات والتقاليد التي يلتزم بها الحكام مع الرعية ما يوحي بأنهم أكثر من بشر، وكانوا يلومون المتصلين بهم بأسلوب في المعاملة الخاضعة الذليلة لا تليق بعلاقة الإنسان المسلم بأخيه المسلم حاكما كان أو محكوما، ولم يرو شيء منها عن رسول الله ﷺ الذي كان قمة التواضع والمعاملة الكريمة، واحترام إنسانية الإنسان.. فهل يمكن أن يحسب من آله هؤلاء المتألهون المتكبرون؟!!

وقد كانت لهم جرأة كبيرة على التنكيل بمخالفيهم بأفظع الوسائل، التي لم تعرفها العصور البربرية أو الحديثة.

كما أنهم كانوا من أجرأ الناس - وبأقبح الأساليب - على سبّ صحابة رسول الله - ﷺ - فضلا عن قدرتهم على انتحال البدع التي لا صلة لها بالإسلام، والزام الناس بها وكأنها من شرع الله.

ومما روي أن أحد فقهاء المالكية في المغرب ويدعى «جبلة» ترك رباطه بقصر الطوب، وأقام في مدينة القيروان، فقيل له: أصلحك الله، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى هاهنا؟!!. فقال:

«كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حلَّ بساحتنا، لأنه اشدّ علينا من الروم»[٥٩].

- وكيف يطمئن المسلمون إلى حكام يزعمون أنهم خلفاء مسلمون،

---

(٥٩) رياض النفوس (الجزء المخطوط) نقلا عن د/ أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩٨، نشر الأسكندرية.

وأنهم من نسل فاطمة - رضي الله عنها - ومع ذلك يحتضنون، كما فعل المعزّ لدين الله - شاعراً زنديقاً هو محمد بن هاني الأندلسيّ الذي يقول لخليفتهم متحديا مشاعر المسلمين وضارباً بها عرض الحائط:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار؟

ويقول ابن حماد عن بدع الفاطميين التي استحدثوها في الآذان والصلاة: «كان مما أحدث عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان وأمر بصيام يومين قبله وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من آذان صلاة الصبح «الصلاة خير من النوم» وزاد «حي على خير العمل محمد وعلى خير البشر»[٦٠].

ويحكي ابن تغري بردى ركوب الخلفاء الفاطميين في أول العام من كل سنة وبدعهم في ذلك، فيقول: «والمعزّ هذا هو الذي استنَّ ذلك كله، فكان أمره إذا كان أواخر ذي الحجة من كل سنة انتصب كل من المستخدمين في الأماكن الآتي ذكرها لإخراج آلات الركوب:

فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة، وهو الصماصم المصقولة المذهبة. [مكان السيوف]، والدبابيس الملبّسة بالأحمر وآلات يقال لها المستوفيات، وهي عمد حديد طول ذراعين مربعة الشكل، لها مقابض مدوّرة في اليد، وعدد معلومة أيضا من كل صنف يتسلمها نقباؤها، وستمائة حربة بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة، كل اثنتين في شرابة تعطى لثلثمائة عبد [من] السودان الشباب يقال لهم: أرباب السلاح الصغير، ويعطى لكل منهم ورقة[٦١] الى غير هذا من البدع المنسوبة إليهم والتي لا يمكن حصرها..!!

---

(٦٠) مخطوطة ابن حماد ١٥، ١٦.

(٦١) النجوم الزاهرة ٤/٧٩.

السياسة المالية للفاطميين ودعوى الرخاء:

من بين ما قدمه أنصار الفاطميين في معرض الثناء عليهم، وإثبات نسبهم وأحقيتهم للخلافة - القول بأن عهدهم كان عهد رخاء...

والحق أننا وقفنا عند هذه الدعوى مستغربين، ذلك لأننا نعلم، من خلفيتنا التاريخية العادية - أن هناك أنواعا من الفقر حلت بمصر، لم تحل بها في تاريخها قط، وقد استغربنا أن يرى بعض المؤرخين في بذخ الأسرة الفاطمية الحاكمة، ومن يلوذون بها، أو يتولون مناصبها - دليلا على المستوى الاقتصادي العام للشعب المصري، مع أنه من البديهيات المعروفة أن الطبقتين الوسطى والدنيا في المجتمع هي المقياس الذي يقاس به المستوى الاقتصادي للشعب، وليس مستوى القلة الحاكمة، التي يعتبر ثراؤها شيئا مألوفا، وكثيرا ما يكون بذخها دليل إنهاك اقتصادي للشعب، وتسلط على الأموال العامة، وهو الأمر الذي نراه ينطبق كل الانطباق على الفاطميين!!

ومنذ اليوم الأول لوصول المعزّ لدين الله الفاطمي لمصر ٣٦١ هـ ونحن نجد بداية تسلط غريب على بيت المال، وبذخ كبير في الإنفاق، وبدع مستحدثة في الإنفاق، ما أنزل الله بها من سلطان.

وكذلك عند حصر تركتهم التي خلفوها في المغرب، نجد نفس الاحتكار لأموال المسلمين، بما لم يوجد عند الأكاسرة والقياصرة «كما يقول ابن حماد مؤرخ دولتهم».

وفي هذا المجال فإننا ننقل نصين من المخطوط المذكور، بأحدهما عند فتح الفاطميين لمصر، وثانيهما عندما انتهت الدولة في المغرب وحصرت تركتها - كما ذكرنا - يقول ابن حماد:

وبنى جوهر القاهرة وسماها بهذا الاسم، ووصل المعز إلى الاسكندرية لستّ بقين من شعبان سنة ٣٦٢ هـ وتوجه اليه من مصر القاضي والشهود والأعيان، واستقر بقصره بالقاهرة يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة

٣٦٣ هـ. وكان جوهر قد هيأ له هدية وتلقاه بها وهي أربعة أقفاص منحوتة من عود محكمة الصنعة بحلية من فضة يحمل كل قفص منها أربعة رجال فيها أواني ذهب وفضة، ويتبع ذلك أربعة خدم يحمل كل واحد منهم خمسة أسياف بحمائل إبريسم محلاة بالذهب، وخادمان بأيديهما أدراج فضة فيها خواتم فضة فصوصها يواقيت وجوهر كثير، وغلام يحمل علاق خيزران فيه تاج مرصع وتسع من النوق عليها أجلة ديباج ملونة وثلاثون قبة على ثلاثين ناقة بمناطقها ولببها، ومقاودها، وأثفارها فضة، على كل ناقة منها حلّتان من ديباج ومنها خمس عشرة ناقة قبابها مذهبة مرصعة بالزجاج، وخمسمائة رقاص على يد كل واحد منهم سفطان أو تختان من خز العراق، ومن كل نوع من أنواع الأمتعة، وأربعة أفراس بسرجها ولجمها ومقاودها حرير تجتذب إلى كل منها ناقة بسرج ذهب مفرع ولجام ذهب مرصع بالياقوت وفرس عليه سرج ذهب مرصع بالعنبر. وأربع بغلات بسروجها ولجمها، ولها مقاود من هذا النوع وستّ وثلاثون بغلة بأجلّة ديباج وبرافع ديباج ملونة، ومائة وثلاثون بغلة بالاكف، وخلفها من الجمال والنجيب فوق الخمسمائة، ومن العين ستمائة ألف دينار وجرايان فيهما فرشان أقام الصناع في عملها سنتين وأنفق عليها في الأجرة عشرة آلاف دينار[٦٢].

- أما ما أحصي من تركة الدولة الفاطمية في المغرب عند نهايتها على يد المعز بن باديس[٦٣] فيحدثنا عنه ابن حماد بقوله:

«ويقال إن الذي وجد في خزائن بني عبيد عند انقراض دولتهم واستواء المعزّ على مملكتهم من الأموال والذخائر والأعلاف والجواهر لم يوجد مثله (عند) القياصرة والكياسرة ثم إن الجند كانوا يقتسمون الجواهر النفيسة بالمكايل الكبار مثل اللوبيا ونحوه، وكانوا يقطعون العنبر والكافور بالفؤوس من الجرارات، ويقال إن أصل هذه الأموال لا يفي بها خراج

---

(٦٢) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد ٤٤، ٤٥، ٤٦ (مخطوطة).

(٦٣) هو المعز بن باديس خليفتهم الصنهاجي بالمغرب، خلع طاعتهم سنة ٤٣٩ هـ ورجع إلى السنّة، وقمع البدعة فسلطوا عليه قبائل بني هلال وبني سليم.

المعمور من المعمور على مر الدهور على ما كانوا يخرجونه من تجهيز الجيوش وعمارة المدن وإقامة الرسم وحفظ الهمم وإجراء الأرزاق وإنما هي من الكنوز التي استخرجها الحاكم من أرض مصر التي هي محل الهياكل القديمة والمدائن العظيمة، وإنه مما أفاء من ذلك الإلحاد»[٦٤].!!

- أما عن الرخاء الفاطمي الذي زعمه الدكتور شعوط وبروكلمان، وغيرهما من المؤرخين المعاصرين فالحق أنه رخاء قاصر عليهم وعلى حواشيهم - كما ذكرنا - أما مجموع الأمة فإن الاستقراء التاريخي يدلنا على أن وضعها كان غير ذلك تماما. فقد عرفت مصر في العهد الفاطمي من الشدة والضيق ما لم تعرفه في عصورها كلها. وإن ما يعرف بالشدة المستنصرية وحده، لكفيل بإبراز هذه الحقيقة وإن حوليات هذه الفترة التي حكم فيها المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) لحافلة بأبشع صور الضيق التي أطلق عليها (الشدة العظمى) والتي أكل فيها الناس بعضهم بعضا، وأكلوا أولاهم، وأكلوا الحمير والكلاب، وبيع الرغيف بمائة دينار.. فكيف يقال إن عصور الفاطميين كانت عصور رخاء كما يدعي بروكلمان والدكتور شعوط؟ وإن ما أنفقوه على المظاهر والأحفال، والمزارات والقصور - من مال الأمة - ليس دليلا على الرخاء، بل هو دليل على السفه والاستغلال البشع، والنظر إلى أموال الأمة على أنها أموال لهم، ولمن يقدسهم ويتبرك بهم ويؤمن (بحقهم الإلهي) في التصرف في الأمة تصرفاً أقرب ما يكون إلى (البابوية) في العصور الوسطى!!

ومن بين الموسوعات التي تناولت - بموضوعية - تاريخ الفاطميين نعتمد على موسوعتين، في استقراء الحالة الاقتصادية، ونعتقد أن هاتين الموسوعتين يغنيان عن غيرها، ونحن لا نأخذ عنهما إلا ما نعرف أنه أمر شائع يكاد ينعدم الخلاف حوله.

---

(٦٤) المخطوط ٥٥ ويبدو أن الفاطميين كانوا يودعون بعض كنوزهم في المغرب، خشية تقلب الأحوال في مصر.

والموسوعة الأولى هي موسوعة (ابن تغري بردى) (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة).

أما الموسوعة الثانية فهي موسوعة (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) الموسومة باسم (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا).. فابن تغري بردى - مؤرخ مصر الكبير - يورد في موسوعته المعروفة «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» من أخبار الغلاء في مصر ما يدفع القول بالرخاء، فما عرفت مصر غلاء على هذا النحو، مهما مرت بها من أزمات. فعند حديثه الإجمالي عن المستنصر الفاطمي يقول ابن تغري بردى: «ولا أعلم أحدا في الإسلام، لا خليفة وسلطانا، طالت مدته مثل المستنصر هذا، وولي وهو ابن سبع سنين، وحدث في أيام المستنصر بمصر الغلاء، الذي ما عهد بمثله منذ زمان يوسف عليه السلام. ودام سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضا، حتى قيل. إنه بيع رغيف واحد بخمسين دينارا - فإنا لله وإنا إليه راجعون - وحتى إن المستنصر هذا بقي يركب وحده، وخواصه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع، وآل الأمر إلى أن استعار المستنصر بغلة يركبها من صاحب ديوان الإنشاء، وآخر شيء نزحت أم المستنصر وبناته إلى بغداد خوفا من أن يمتن جوعا، وكان ذلك في سنة ستين وأربعمائة، ولم يزل هذا الغلاء حتى تحرك الأمير بدر الجمالي والد الأفضل أمير الجيوش من عكا وركب في البحر وجاء إلى مصر، وتولى تدبير الأمور وشرع في إصلاح الأمر، وتوفى المستنصر في ذي الحجة، وفي دولته كان الرفض والسب فاشيا مجهرا، والسنّة والإسلام غريبان: فسبحان الحليم الخبير الذي يفعل في ملكه ما يريد[٦٥].

- وفي موضع آخر (في ذكر أحوال سنة ٤٢٨ هـ) يفصل ابن تغري بردى - أمر الغلاء على نحو أوضح، فيقول:

«ولا زال (الحال) على ذلك حتى جمع ابن حمدان جمعا كبيرا ونزل

---

(٦٥) النجوم الزاهرة ٥ ص١، ٢ طبع بمصر.

الصالحية، فخرج إليه من كان يهواه من المشارقة، وامتدت عسكره نحو عشرة فراسخ وحاصر مصر، فضعف المستنصر عن مقاومته وانحصر بالقاهرة، وطال الحصار وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، فضج العوام، فخاف المستنصر أن يسلموه إليه، فراسله وصالحه على أن ينفرد ابن حمدان بالبلاد وتدبير الأمور والعساكر، فرضي المستنصر بذلك كله، ورفع الحصار عن مصر، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فهرب غالب من كان مع المستنصر الى الشام، ووفدوا على صاحبها بدر الجمالي، وكان بدر الجمالي يكره ابن حمدان والشريف المذكور ثم ظفر الجمالي بالشريف المذكور وقتله خنقا، وصار المستنصر في قصره كالمحجور عليه ولا حكم له.

هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتى إنه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد، والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا، فإنه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضا، وظهر على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء، وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها، وأكلت الدواب بأسرها فلم يبق لصاحب مصر - أعني المستنصر - سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة، وبيع الكلب بخمسة دنانير، والسنّور بثلاثة دنانير، ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصر عن بغلته وليس معه إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوها منه، ولم يقدر الغلام على منعهم لضعفه فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، أكل الناس في تلك الليلة لحومهم ودخل رجل الحمام فقال له الحمامي! من تريد أن يخدمك سعد الدولة أم عز الدولة أم فخر الدولة؟ فقال له الرجل: أتهزأ بي: فقال: لا والله انظر إليهم، فنظر فإذا أعيان الدولة ورؤساؤها صاروا يخدمون الناس في الحمام لكونهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء واحتاجوا إلى الخدمة[٦٦].

وأعظم من هذا أن المستنصر الخليفة صاحب الترجمة باع جميع موجوده

(٦٦) النجوم الزاهرة ١٥/٥، ١٦.

وجميع ما كان في قصره حتى أخرج ثيابا كانت في القصر من زمن الطائع الخليفة العباسيّ.

وكان السودان يقفون في الأزقة يخطفون النساء بالكلاليب ويشرحون لحومهن ويأكلونها، واجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة، فعلقها السودان بالكلاليب، وقطعوا من عجزها قطعة، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها، فخرجت من الدار واستغاثت، فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوفا من القتلى، وقتل السودان، واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتى إنه أرسل فأخذ قناديل الفضة والسنور من مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام، وخرجت امرأة من القاهرة في هذا الغلاء ومعها مدّ جوهر فقالت: من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقاً أو قمحاً؟ فلم يلتفت إليها أحد، فألقته في الطريق وقالت: هذا ما ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم، فلم يلتفت إليه أحد وهو ممدَّد في الطريق[٦٧].

وفي سنة (٤٤٨ هـ) - وقع غلاء آخر - غير الغلاء الذي كان في العشرينات وما بعدها، وابن تغري بردى يتحدث عن هذه السنة فيقول:

«وفيها عمّ الوباء والقحط بغداد والشام ومصر والدنيا، وكان الناس يأكلون الميتة، وبلغت الرمانة والسفرجلة ديناراً، وكذا الخيارة واللينوفرة، وانقطع ماء النيل بمصر، وكان يموت فيها في كل يوم عشرة آلاف إنسان. وباع عطار واحد في يوم واحد ألف قارورة شراب، ووقع بمصر أن ثلاثة لصوص نقبوا نقبا فوجدوا عند الصباح موتى: أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الكارة التي سرقها، وهذا الوباء والغلاء خلاف الغلاء الذي ذكرناه في ترجمة المستنصر، ويأتي ذكر ذلك أيضا في محله غير أنه كان ينذر عن ذاك بأمور استرسلت إلى أن عظم الأمر»[٦٨].

---

(٦٧) المصدر السابق.

(٦٨) النجوم الزاهرة ٥/٥٩ (حوادث سنة ٤٤٨).

وفي أحوال سنة (٤٥٩ هـ) كان الغلاء فاحشا كسابقه في سنوات ٤٢٨، ٤٤٨ هـ. وما بينهما... يقول ابن تغري بردى:

وفيها أي في سنة ٤٥٩ هـ كان بمصر الغلاء والقحط المتواتر الذي خرج عن الحد - وقد تقدم ذكره - ولا زال في زيادة في هذه السنة والتي قبلها إلى أن أخذ أمره في نقص في سنة إحدى وستين وأربعمائة، وبيع القمح في هذه السنة بثمانين دينارا الأردب[٦٩].

- وفي حديث ابن تغري بردى عن سنة (٤٦١ هـ)، وهي السنة الرابعة والثلاثون من ولاية المستنصر.. يقول:

وفيها بيع القمح بمصر بمائة دينار الأردب، ثم عدم وجوده. وفي السنة التالية لها (٤٦٢ هـ) يقول:

فيها كان معظم الغلاء بالديار المصرية حتى خربت وخرب غالب أعمالها وأبطل صاحب مكة وصاحب المدينة خطبة للمستنصر، وخطبا للقائم بأمر الله العباسي، فلم يلتفت المستنصر لذلك لشغله بنفسه ورعيته من عظم الغلاء[٧٠].

أما صاحب الموسوعة الثانية (اتعاظ الحنفا) - وهو العلامة المقريزي - (الذي دافع عن صحة نسب الفاطميين) فقد ذكر في تاريخه لهذه السنوات الخصائص نفسها[٧١]، فهي أمر يكاد يكون شائعا، ولذلك لا نجد أنفسنا في حاجة إلى تكرار ما ورد فيها، وحسبنا أن نأخذ منه تصويرا لبقية حياة الدولة الفاطمية في مصر - حتى تكتمل الصورة، ونكون قد عرفنا رأي المؤرخين الثبتيين معا.

يتحدث المقريزي عن سنة (٤٩٠ هـ) أيام المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله الفاطمي - فيقول:

---

(٦٩) المصدر السابق ٥/٧٩، ٨٣.

(٧٠) المصدر السابق ٥/٨٤.

(٧١) اتعاظ الحنفاء الجزء الثاني.

«وفيها وقع بمصر غلاء ومجاعة »[٧٢].

وفي حديثه عن سنة (٥٠٥ هـ) يقول:

« فيها حدث بمصر وباء مفرط هلك به تقدير ٦٠ ألفا »[٧٣] وعن سنة (٥٢٣ هـ) يقول المقريزي:

« فيها عم البلاد بمصر جميع الكتاب والقضاة والسّوقة من الراهب ابن أبي نجاح، وهو نصراني مكّنه الفاطميون كان يجلس في قاعة الخطابة من مسجد عمرو بن العاص، ويستدعي الناس للمصادرة »[٧٤].

وعن سنة (٥٣٧ هـ) يقول المقريزي:

« فيها عظم الوباء بديار مصر فهلك فيها عالم لا يحصى عدده ».

وعن سنة (٥٥١ هـ) يقول المقريزي:

« في عهد الفائز بنصر الله أبي القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله، فيها نزع السعر، ووقع الغلاء بديار مصر فلحق الناس منه شدة »[٧٥].

وعن سنة (٥٥٥ هـ) يقول المقريزي:

« فيها بويع للعاضد لدين الله وعمره تسع سنين وستة أشهر. في عهده كانت الفتنة المعروفة بين شاور وضرغام، وعندما جاء صلاح الدين ٥٦٦ هـ رفع جميع المكوس بديار مصر وأبطلها وعزل قضاة مصر من الشيعة »[٧٦].

وأما عن ثروات وزراء الفاطميين فيتحدث المقريزي فيقول: « في سنة ٥١٥ هـ قدرت ثروة الأفضل ستة آلاف دينار، وثلاثة آلاف ألف دينار،

---

(٧٢) اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٩ بتحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٣٩٣.

(٧٣) المصدر السابق ص٤٩.

(٧٤) المصدر السابق ١٢٥.

(٧٥) السابق ص١٧٧، ٢٢٩.

(٧٦) ص٢٤٣.

وثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وثلاثين راحلة من الذهب العراقي وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة وخمسمائة صندوق كسوة وغيرها من الأبقار والجواميس والطيب والآلات »[٧٧].

وفي سنة ٥١٩ هـ قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون فوجد له سبعون سرجا من ذهب ومائتا صندوق كسوة وغيرها[٧٨].

وهكذا نجد (المعادلة الاقتصادية) واضحة في عصر الفاطميين، وهي:

- بذخ وإسراف في محيط الصفوة، يتأكد في احتفالاتهم وثرواتهم وبدعهم.

- وفقرٌ وأوبئة وشدة في محيط الشعب، يتضح من سلسلة السنوات القاحلة التي كادت تقضي على الشعب المصري، والتي ذاق الناس فيها من الغلاء وآثاره ما لم يذوقوه في أية حقبة أخرى من تاريخهم، ولا مجال بالتالي للقول برخاء مصر، إذا كان مقصودا بمصر شعبها المصري.

وبعد: فإننا بعد هذا العرض لسياسة الفاطميين العامة، والدينية، والمالية، نستطيع القول: إن هذه السياسة العامة التي سار عليها الفاطميون هي التي جعلت صلاح الدين الأيوبي، يُبقي العاضد آخر خلفائهم دون أن يقضي عليه، لأن الخلافة الفاطمية كانت قد ماتت قبل العاضد، وكاد نصف العالم الإسلامي على الأقل - يموت من جراء سياستها، التي مكنت الصليبيين، وتركت الأمور لطموح الوزراء العظام وجشعهم، حتى جاء صلاح الدين فأعلن سقوط خلافة (ساقطة)، لم ينتطح في أمر سقوطها عنزان، كما يقول المؤرخون. وبدأ (رحمه الله) يزيل آثارها، ومكوسها،

---

(٧٧) السابق ص ٧٠.

(٧٨) السابق ص ١١٠.

ومظالمها، وبدعها وخرافاتها، ويجمع الصفوف لمقاومة الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين.

وإننا - انطلاقا من كل ما ذكرنا من حقائق مباشرة وغير مباشرة - لنتشكك، بل ونرفض، نسبة الفاطميين إلى آل البيت، ونعتقد أنهم ليسوا يهودا ولا نصارى، وإنما هم قرامطة متسلطون من أصحاب العقائد المستترة، والأفكار المعادية للإسلام الصحيح وللأمة الإسلامية - لكن كل ذلك لا يمنعنا من أن نهتم بهم كصفحة من التاريخ، لا بد أن تدرس وأن تأخذ حقها من العناية، وأن توضع في مكانها الصحيح، وتعطي حجمها الصحيح... إن حقهم في التاريخ قضية لا تقبل المناقشة.... مهما كان رأينا فيهم، وتقويمنا لهم.

المراجع

١ [illegible] — ابراهيم شعوط
٢ اتعاظ الحنفا — المقريزي
٣ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب — جمال الدين محمد بن سالم بن واصل
٤ النجوم الزاهرة — ابن تغري بردي
٥ سياسة الفاطميين الخارجية — محمد صلاح الدين [illegible]
٦ أخبار ملوك بني عبيد — ابن حماد (مخطوط)
٧ تاريخ المغرب والأندلس — احمد مختار العبادي
٨ رياض النفوس
٩ [illegible]
١٠ [illegible]
١١ [illegible]
١٢ الكواكب الدرية في السيرة النبوية
١٣ المتنبي و القرامطة — محمد محمد حسين
١٤ كتاب افتتاح الدعوة — القاضي النعمان
١٥ تاريخ الدولة الفاطمية — حسن ابراهيم حسن
١٦ البداية والنهاية — لابن كثير
١٧ وفيات الأعيان — لابن خلكان
١٨ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

المحتويات